

عبد محمد عزال



سَجِّدِ الصَّغِيرَ الْوَلَسَّيَانِي  
فِي مَسِيرِهِ وَمَصِيرِهِ

سَجَّ الْاَعْيُنُ الرَّوَّاسِيَّاتِ  
فِي مَسِيرِهِ وَمَصِيرِهِ

ظهرت الطبعة الأولى  
من هذا الكتاب في يناير — ١٩٦٣

الطبعة الثالثة  
١٤٢٥هـ — ٢٠٠٤م

---

---

جميع الحقوق محفوظة للناس

---

---

دار المنظم للبشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ربحان - عابدين - القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

عبد محمد عابد

# سَجِّدِ الصَّغِيرَ الْوَلَدِيَّ فِي

فِي مَسِيرِهِ وَمَصِيرِهِ



## في هذا الكتاب

٧	مقدمة
١١	الفصل الأول - "عَصْرُ الرُّؤْيَا"
٧٩	الفصل الثاني - "في صُحْبَةِ الثُّبُورَةِ"
١٥٧	الفصل الثالث - "في عصر العقل"
٢٠٧	الفصل الرابع - "في عصر غاندى، والذُّرَّة"

## مقدمة

لا وقت عندنا لمقدمة طويلة، فإني لا أريد أن أرجع لقاءكم مع الموضوع والكتاب ..

وإذا كان لابد أن يكون لكل كتاب مقدمة تُعرِّف القارئ بقرضه ومنهاجه، فدعوني أصنع هذا في كلمات سريعة.

• إن هذا الكتاب يُمثل رؤية تاريخية لو كتب "الضمير الإنساني" في رحلته، منذ بدأ مسيره حتى يومنا هذا . رؤية تسعى إلى استخلاص الخصائص التي يقود الضمير بها قافلة الإنسان صوب كمالها المقدور، كما تُحاول استشراف المستقبل الواعد لبني الإنسان من خلال التجربة الحية للضمير.

• ولئن كان ثمة ما تعارف الناس على تسميته

بـ"الضمير الدولي" أو "الضمير العلمي" أو "الضمير الديني"

أو "الضمير الاجتماعي" - فإننا نعني بـ "الضمير الإنساني" ما هو أعم من هذا كله، وأكثر شمولاً .

نعني به تلك البصيرة التي أفاها الله على الجنس البشري في مجموع أفرادهِ . وعبقريَّاته، ورؤاه.. نعني به إرادة التفوق التي تقود بالحاحاتها النبيلة وحُدُسها القويم، جميع العائلة البشرية لتعاني مصيرها الخير العظيم .

• وبجئنا هذا يقوم على فرض ..

فحوى هذا الفرض، أن الضمير مشيئة حيّة تعمل فينا، وأنه سبق العقل في الظهور وتفوق عليه، وأنه بدأ - يوم بدأ - رشيداً واعياً، كأنما معه من الله نور، وأن رؤاه التي هتف بها حتى من ألوف السنين كانت واضحة الرُّشد، وأما السَّدَاجَةُ التي صاحبت وسائل التعبير عن تلك الرؤى، فلم تكن من عمل الضمير - بل كانت من عمل العقل الناشئ والفكر المبتدئ ..

وليس معنى هذا أن الضمير وُلِدَ كاملاً، وأنه لا ينمو.. كلا، لقد وُلِدَ يحملُ رُشدِهِ، ويعرف بطريقة ما طريقه، ثم هو بعد هذا ينمو ويتكامل مع الزمان .

وقد تسألون: كيف ينهض بحث كهذا على مجرد فرض..؟؟

وأجيبكم: إن "اينشتاين" - كما يقولون -، قد بنى نظريته في

النسبية على اثني عشر فرضاً لم يكن بينها فرض واحد يمكن التذليل على صحته، ومع هذا فقد أفضت تلك الفروض إلى نظرية النسبية بكل ما تنطوي عليه من يقين وإعجاز .. ١١

وصحيح أنه لا بد أن يكون للفروض أساس منطقي حتى يمكن أن نتوصل بها إلى المعرفة واليقين العملي .. وأقول لكم: أن فرضاً الذي ينهض عليه هذا الكتاب، له من الجدارة المنطقية والتاريخية حظ كبير، يبدو هذا واضحاً ومبيناً ونحن نبصر من خلال الرحلة الطويلة للضمير، اتجاهاً الفذ نحو المصير الإنساني في وحدة، وتكامل .. وفي المعية لا تكاد تُخطئ، وتقدير لا يكاد يتعثر .. ١٢

• ففي "عصر الرؤيا"، نرى الضمير الإنساني يستشوف في حديق كل رَجَم مكنونة بين البشرية والكون، والعالم .. ١٣  
وفي "صُحبة النبوة" نرى الوجود يُزكى الكثير من رؤاه السالفة، ويمنحه من نور الله ما يشدُّ رُشده ويثبت خطاه .  
وفي "عصر العقل" نجد العلم بكل قوانينه، والإنسانيات بكل حيثياتها وبهائتها، يحملان المشعل لِنَمَّا به كلمة الضمير ..

• وفي عصرنا هذا، الذي أسميناه "عصر غاندى . والذرة"



يتمثل فيه كما قلنا في ختام الكتاب لهامة مَسِير... وبداية  
مَصِير...!! فيستبين للبشرية طريقها الأوحـد . ويستكمل الضمير  
وَحَدته ورُشدَه

\*\*\*

وبعد، فقد خرجتُ من هذا الكتاب ييقين لأرب فيه.  
هو: أن الأرض لن يرثها دُعاة الفتك، ولا أولياء التحالف،  
ولا حَمَلَةُ الكراهية..  
بل سيرثها عبادُ الله الودَّعاء.. بُناةُ الحق والحُب.. صانعو  
السلام والرحمة.. أولياء الإيمان والعقل.. أصدقاء الإنسان  
والحياة.

خالد محمد خالد

## الفصل الأول



في عصر الرؤيا ..



ألقى الإنسان نفسه جزءاً من حياة فذة. تعمل داخل كون  
لا تنتهي عجائبه .

وفي البيعة القريبة منه والتي تُعْمَلُ عشيرته الأقربين كان  
يرقب المشاهد في دهش .

فالماء يجري . وتجرى الحياة في أثره .

والأرض تمتاز بالزرع الطالع . تحمله في غناء، ثم تلبسُهُ في  
حنان. ثم ترعى مع الشمس شبابه، حتى إذا جاء ميقاتهُ المعلوم  
أسلمته قريباً للإنسان، وتلقفته مناجل الحصاد .<sup>١١</sup>

ويعود الأرض، فتلقى البدار من حديد، والغراس وتُعاوِدُ  
كرّمها، فتحمل وتلد، وتُعطي القرابين.

والإنسان.. ما الإنسان ؟..

إبه كهاتيث المواليد من الررع.

تلده الحياة. وتدفعه الأرحام إلى أبهاء الوجود، ثم تلقفه  
مناجل الموت حين يجيء ميعاده .

بينما الحياة في نشاطها الخالد لاثنى.. مواليد في إثر  
مواليد..!!

ويرنو ببصيرته إلى البيئة العليا.. هناك في الأعمال البعيدة .  
عند ذلك السقف المرفوع يرى نفس المشهد .

الشمس تطلع كل صباح من المشرق، وتغرب الأفاق في  
رحلتها الجلية وموكبها الأبدى، حيث تأوى آخر النهار  
لمستقرها فتهبط إلى مخدعها، ويموت يوم..

وفي الصباح تعود الشمس، ويولد يوم جديد. والقمر يطلع  
ذات ليلة على استحياء، خيطا من الضياء رقيقا، وهائلا، مقوسا  
ثم ينمو ويكتمل بسهاؤه، ثم ينسحب من الحياة رويدا، رويدا،  
حتى يختفي، ويختفي معه ضياؤه.. إنه يستريح من رحلته المضنية  
ليعود ويستأنفها من جديد..!!

والرياح تهرى مُرسلة وعاصفة .  
والرعود، والبروق، تروح ونجى مُدكرة ومندرة..  
ما هذه العجائب. ؟؟ وأيان مُرسلها. ؟؟  
كان الناس يحدسون، وهمكرون .

وكان الصمير الإنساني في مقره المستكن يرصد ويتفحص.  
ومن يدرى.. لعله كان أيضاً يتذكر ..

على أية حال، فما هو ذا يصير فيما حوله من مشاهد  
الكون والحياة جلالاً واقتداراً .

فهل يرهبها.. هل يحبها ؟..

هل يُدنو منها ؟.. أم يُعرض عنها ؟..

هل يُسلمها سمعه لسمع همسها ونجواها، أم يجعل بينه  
وبينها سدّاً ..

أحق، أنه م يمكن له حق الاختيار فأين المفر ؟..

إنه مهما يهرب من الأرض فإلى الأرض .

أو من الشمس ، فإلى الشمس ..

أو من الحياة والموت، فإلى الحياة والموت .

إن خير ما يصنع إذن أن يتعرف إلى هذه القوى  
والكائنات .

وأن يعرض عليها صداقته وإحباءه .

فسنظر كيف سيمضي الصمير .

إن أمر هذه العائلة لعجيب حقاً !!

العائلة التي تُذهبه الآن بحركتها إن في الأرض وإن في

السماء. لابد أن لها عائلة كبيرة، فإذا أراد أن يتعرف على العائلة كلها، فلا مناص من البدء بعائلها وكبيرها ترى ماذا يكون؟  
ربما.. أم ملكاً.. أم أمياً ؟..

فليكن أى شيء من هذا ..

المهم أن يرحل إليه ويقرع باب دونه، ويقول له: إني  
أعرض عليك وعلى كوكبك صداقتي؛ وصداقة الجنس الذى أمثله.  
ولكن أئني له هذا الحكم لسريع؟ الحكم أن لهذه العائلة  
أباً وعائلة .. ؟..

تلك هي سنة الحياة كما يراها .

فلكل نبتة خضراء، زرع يزرعها ويرعاها .

وهذا الكوخ، أو البيت ، له بان بناء

ولكل محراث صانعه، ولكل حديقة بستانيها ..

ولكل عائلة من بنى الناس أبوها .

فهذا الماء ائدى يجرى.. والقمر الذى يبرُغ . وصاحبة

الجلالة "الشمس" التى تتحرك موكبها المهيّب كل يوم

وكأنها ستعرض رعاياها.. وهذه الرياح التى تسبح وتمرح

حين ترضى.. وتزجر وتدمر حين تعصب .

أليس لها "أب" ولدها . أم تراها وبدت نفسها ؟.

نه يستطيع أن يرى وراء كل شيء في دنياه أباه وصانعه.  
فمن هو "الأب" الذي ولدَ هذه القُوى؟.. ومن الباري  
الذي خلَقَ وسوَّى ؟..

لكن، هذه الشمس .

- وكذلك القمر، والرياح، والسما، ولأرض، والنهر،  
والبرق - بقوتسها الخارقة، وحركتها الدائبة، وطاقتها العارمة  
وميرُّها المعبو.

أتشجّع على الاقتراب منها فضلاً عن عقد أواصر الصداقة  
معه ؟.. !

إسها عوالم أخرى لا تمتُّ للإنسان بصلة ..

عوالم أخرى ؟؟؟

كيف ؟.. وهي جزء من حياتنا، وحياتنا جزء منها إننا  
جميعاً نولد.. ونموت.. ونبعث .

كلنا . الشمس، والقمر، والزرع، والإنسان، والحيوان. إن  
هذا ليُشجع عني أن يكون بيننا وبين هذه القُوى إلف وزمالة .

صحيح أنها رهيبه، ومخيرة، ونشع منها قداسة عُتوية .

يبد أن صداقتها رغم هذا كله. هي خير سبيل لمهمها،  
وتجنب بأسها .

وإذا كانت الصداقة بين صغير وكبير.. بين الإنسان  
الضعيف وبين القوى التي يبدو أنه مدين لها بحياته وبقائه.  
فستأخذ من أجل هذا طابع التقديس والعبادة .

وأى بأس ؟؟..

نعبدها ؟؟ ليكون ذلك وهل العبادة إلا التوفير في مستوى  
أعلى.

ولماذا لا نوقرها، وهي - فيما يبدو - أهل لكل توفير ؟؟  
هكذا - فيما نحسب - كان حديث الضمير مع نفسه في  
فجر حياته.

إنه يقترب من أفراد العائلة المقدسة جميعاً، ويعطيهم حبه  
وصداقته وتقديسه .

ورنه لشئ باهر حقاً، أن يبدأ الضمير عمله بعقد صداقة بين  
الجنس البشري والكون بأسره ..

إن كثيراً من المؤرخين، وفلاسفة التاريخ الذين يقفون ضد  
هد الشروق للضمير الإنسان لا يرون وراء عبادة تلك القوى  
سوى التخبط والخوف .

أما نحن، فدعنا نذهب إلى الرأي الآخر.. دعنا نقف في غمر  
مُعالة. إن الضمير الإنساني كان يعرض صداقته على الكون



لكي يطمئن إليه ويفهمه جيدًا.

وكانت طقوس العادة التي ترك الناس بمارسوسها يومذاك. شعائر هذه الصداقة الكونية المبكرة . صحيح أنه سيكون نُصّت تحبّط، بيد أن التحبّط سيكون في الأشكال والطقوس، لأنها من عمل العقل واختراعه أما "الرؤيا" نفسها. أما "الجوهر" دته، فأمر عظيم باهر العصمة . هذا الذي تحاول حضارتنا اليوم في دروتها أن تصنعه. مصافحة الكون وبهمه..!

إن "الفكرة" ذاتها من وحي الصمير وعمله . أما تنفيذها فمتروك للعقل.. والعقل يومئذ رغم مهارته في الحضارة العمرانية والعملية، فإن قدرته على التخطيط الروحي كانت محدودة وقاصرة . من أجل ذلك سنعىء وسائله في التعبير عن رؤى الصمير سادجة وعريرة .

وهي تلبو سادجة وعريرة اليوم، بعد خمسة آلاف سنة من حدوثها.. وبعد أن نخلعها من إطارها الرمي، ونخرجها من بيتها التاريخية، ثم ننثرها اليوم تحت أعيننا، ونقيسها بمقاييسنا في القرن العشرين. تلك المقاييس التي أثمرتها تجارب خمسة آلاف عام،

لم يكن منها مع العقل الإنسانى يومذاك شىء ١١

\*\*\*

لقد اتجه "الضمير الإنسانى" إلى مواخاة الكون فى ذلك  
المطلع البعيد.. وأملى على قوى الذهب مشيئته.

ولسوف نجد "جوهر" هذا الاتجاه موجودا يومذاك فى كل  
مكان يوجد فيه بشر متحضرون

سراه فى مصر القديمة.. وسراه فى آشور . وفى بابل.  
ولكن ستختلف وسائل التعبير باختلاف طبيعة التفكير فى كل  
بيئة وبلد .

\*\*\*

والضمير وهو يُحسُّ الحاجة لهذه العلاقة وهذه الصداقة ثم،  
وهو يُضَمِّنُها أعلى درجات التوقير، وهى العبادة، لا ينسى -  
وحقاً لكم كان فى هذا باهراً - نقول لا ينسى أن يفهم هذه  
العلاقة على التوقير المتبادل، والتكافؤ الملحوظ .

فحين يخلع على هذه القوى السيادة والانوهة، سراه يخلعها  
كذلك على الإنسان .

وإذا كان الإنسان سيتجه بالعبادة والتقديس لقوى الكون  
هذه، من شمس وكواكب، وماء وأرض، وفى صورة إبتهالات

وقرايب؛ فإن هذه القوى نفسها ترد إلى الإنسان التحية بأحسن منها، وذلك بعميق الدائب في سبيل حفظ حياته واستمرارها.

بل إن هذه القوى هي البادئة بتحية الإنسان، وذلك بعملها من أجله منذ بحيته الأرض، وقبل بحيته..!!

إن الصمير يُحيى هذه القوى إذن ويُحيى الإنسان معها إنه يُحيى أصدقائه الجند المعظمين .

فليكونوا إذن سادة، وليكونوا آلهة، ويكن الإنسان عصواً في أسرة الآلهة .

تري، لماذا مادام "الإنسان" موضوع تكريم هذا الصمير، لم يضع الصمير صفة "الإنسانية" مكان صفة "الآلوهية" ؟..

لماذا لم يُسمَّ هذه القوى العظمى "أناسي" بدلا من "آلهة" ؟؟ إن في هذا لبرهاناً آخر على صدق حس هذا الصمير .

إنه مع تقديسه نوعه الإنسان، لا يرى في الإنسان ولا في الإنسانية كلها حلُّ اللغز الخفي الكبير الذي يحيط به ويُحيِّره.. إن الإنسان جزء من اللغز، لا أكثر .

فالإنسان، ليس هو الذي أنشأ الأرض التي تخرج الزرع والثمر، وتحمل على ظهرها الناس والأنعام .

والإنسان ليس هو الذي خلق الشمس والقمر والنجوم..

والإنسان ليس هو الذى خلق المياه التى تُلد الحياة والأحياء.

فلا بد من وجود قوة أعلى .

أُتسمى هذه القوة "إنسانية" ؟؟..

كيف؟ والإنسان مجرد مظهر من مظاهرها، وآية من

آياتها..؟ إنها شئ أكبر ..

إنها "الألوهة" ..

\*\*\*

ولكن إذا كنا جزءاً من هذا اللغز الكبير. من هذا الكون

العظيم ، فلماذا لا تبقى بقاءه ...

إن النهر يموت. لكنه يحيا ويتجدد حياته عند الفيضان

كل عام، فالموت بالنسبة له غياب عارض، والخلود هو

القاعدة..

والشمس تموت كل يوم في الغرب، وتقضى الليل كله في

برزخها الروحي، لكنها تعود للحياة كل صباح، فهي عابدة

والأرض تموت حين تقفر من الرع وتبقى هامة.. لكنها تعود

إلى الحياة فتتهز خضرة ومهجة وعطاء، وهى إذن عابدة..

والبحر يموت في النهار؛ ويُولد في الليل.

وهكذا تبلى الحياة حركة دائبة يتناوبها الوجود والخفاء

## والحضور والغياب

وإذا كان الغياب يعنى الموت؛ فإن الموت كذلك لا يعنى شيئاً سوى الغياب .

وما دام كل شئ يموت ويحيا، يعيب ويعود، فالإنسان ليس بمعزل عن هذه العملية الكبرى التى تحتصنها دعومة ليس لها منتهى .

إنه إذن لا يخضع لفناء نهائى مطلق .

بل إن له لبعثاً وعودة بجسده ونفسه، أو بتفسيه فى جسد جديد .

المهم أن الموت ليس إلا اللبس الذى يخترم طريق حياة الإنسان - أى إنسان - وسيعود الموتى إلى الحياة، أو تعود إليهم الحياة، فوراء كل ليل صباح .

هناك إذن "كُون" ، والإنسان جزء منه .

هناك إذن "أُلُوْهَة" ، والإنسان جزء منها

وهناك إذن "خُود" ، والإنسان جزء منه .

وكما ذكرنا من قبل، لن تقتصر رؤى الضمير الإنسانى

هذه على بلد دون آخر .

بل سلتقى بها فى العالم القديم كله .

في مصر القديمة . وفي آشور .. وبابل .. وفي الهند والفرس ،  
وأثينا .

ولم يكون ثمت تبائن في وسائل التعبير عنها .  
والآن، فننظر كيف سارت التعبيرات الإنشائية عن هذه  
الرؤى والكشوف خلال المسلك المتباين والتطبيقات المختلفة في  
تلك الحضارات القديمة .

وبتعبير آخر، لننظر "عمل الفكر" تجاه "رؤى الصمير"  
عسى أنه لا ينبغي لنا الظن بأن الفكر سيعمل بمعزل تام عن  
الضمير في هذه القضايا وفي سواها من القيم التي سيؤول الضمير  
كشفها .. إنما يعملان معاً في تفاهم وثيق .

بيد أن الصمير وهو ينابيع كُشوفه ورؤاه ويتلقى  
انعكاساتها المتجددة عليه ويحتضن نموها المتزايد في داخله ..

وإنما يفعل ذلك في حدود علاقته بجرهر الحقيقة لأبشكالها  
فهو مثلاً يُحسُّ الألوهة، مجرد الألوهة هذه القوة التي تتمثل  
فيها، وتنطلق منها كل طاقات الحياة .

ولكن هل هذه الألوهة مُشخصّة أم مجردة .. واحدة أم  
متعددة .

إن الفكر سيمضي في تفسير ذلك كله وفق تجربته، فتارة

يُشَحِّصُهَا وتارة يجردها.. ومرة ييثها في قوى الكون . وأخسرى  
ينقلها إلى الأوثان والكهنة .

والضمير في نفس الوقت ماض يسوالى استجلاء رؤياه  
وحدسيه، فبعد حين يشرق في باطنه جزء آخر من الألوهية تتمثل  
في هذا الجزء وحدانية الإله.. وهكذا يمضى سنَّه ولهجته تجاه كل  
كشوفه ورؤاه.

ولعل سؤالا يواجهنا الآن.

— أين كان الضمير من هذه القرارة الفكرية المتبدية في تعبير  
الفكر من رؤاه .

ولماذا لم يرسم الضمير للفكر الأسوب السوى والمنسهب  
الصحيح..؟

وإذا كان قادراً على استشراف الحقائق، وكشف القيم  
وامتلاك "الرؤيا" التي يستطيع أن يتعرف بسها إلى جوهر الأشياء  
فلماذا لم يستعمل مواهبه تلك في هداية الفكر إلى التعبير  
السديد..؟؟

والجواب فيما نرى يتلخص في:

أولاً: أن الضمير الإنسانى لا يعرف كل شىء، وهو وإن  
يكن يمثل "العقل الأعلى" فإن الجهول لا يتكشف له إلا بقدر،

وفى ميقات.

ثانياً. أن الصمير الإنسانى يدرك أن فعالية الإنسان كاملة فى قدرته على الحركة الحرة والاختيار الطليق وهو لهد لا يحد من حركته ولا يتحكم فى اختياره، فإنه لو فعل يكون قد وضع فى طريق نموه العقبات.

إن كل غو يُحرره العقل والفكر خيرٌ معاون للضمير عسى بلوغ أعراضه، وتحقيق إراداته .

وإذا كانت الحرية شرط غائب، فإن الضمير الإنسانى لـ يكون بحاجة لإدراك أن الخطأ الذى يجيء معه التمو خير من الصواب الذى يُخيم معه العجز والإخفاق

\* \* \*

والآن، فهاهو ذا الكون القريب من الإنسان بموج بالآلهة

فالهواء إله ، اسمه "شو"

والأرض إله ، اسمه "غب"

والسماء إله ، اسمه "نوت"

والشمس إله ، اسمه "رَع"

وسينخطو الضمير خطرة يتعرف فيها إلى رب هذه الأسيرة

الكوبية كلها .



فليكن هذا الإله "رع" في مصر، أو "مَرْدُوك" في آشور  
أو "براهما" في الهند

وليتصور الفكر الأسطوري الآلهة على النمط الذي تمليه  
عليه خيrote وسداجته في كل مكان من ذلك العالم البعيد .  
إن ذلك جميعه ليس أكثر من تنوع للصورة وتعبير عن رؤيا  
الضمير .

وخلال هذه التعبيرات جميعها علينا ألا تشغلا الكلمة عن  
"الفكرة" ولا الشكل عن "الجوهر" ..

ويتساءل الضمير .

ما مكان الإنسان من الإله في حركة الحياة كلها ؟

وما منزلة انفس لدى الإله .. ؟

وتجيب الأسطورة المصرية القديمة فائلة :

"نقد صنع - الإله - السماء والأرض حسب مشيئته.

وصدّ وحش المياه وصنع نفس الحياة عياشيمهم ..

إنهم صور له انطلقت من جسده "

الناس إذن صور الإله انطلقت من جسده حسب التعبير

القديم

وبتعبيرنا الحديث اليوم الذي يُقره الدين ذاته - تصبح

العبارة القديمة هكذا - "في الإنسان ألوهة".

كذلكم كان العراقي القلم في ذلك الرمز البعيد حين يريد  
تحسين نفسه، يهيب بقوى الألوهة الكامنة فيه فنراه يقول:  
"إنليل رأسى - وكان إنليل في تفكيرهم إلهاً"  
"والنهار وجهى ....."  
"وأورش الإله الفذ، هو الروح الحامية التي تهدي عطاى"  
"عنقسى قلادة الإله إنليل ....."  
"وذراعى منجل الإله الغربى ....."  
"وأصابعى من عظام آله السماء ....."  
على أنه لم يكن الإنسان وحده مَحَلُّى الألوهة. بل كل أشياء  
الطبيعة وذرات الحياة .

فما نعدّه اليوم من عالم الجماد أو النبات، كان يومئذ  
طاقة إلهية على أسرارها البالغة - فالبوص مثلاً ، عند أهل  
الرافدين، وقبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، لم يكن مجرد "بوص".  
لم يكن مجرد نبات.. بل يتضمن إرادة إلهية، وقدرة إلهية هى  
التي تجعل "البوصة" تصدح بالسبح الخلو حين تكون "ناياً"، وهى  
التي تجعلها تنثر الحكمة. حين تتحوّل إلى "قلم" !!  
والملح - مثلاً - يتضمن نفس الإرادة والقوة .

من أجل ذلك، كان "الأشوري" القلم يُناجيه حين يُلم به مرض فيقول :

"أيها الملح

"خُل عني العقدة :

"وكمخالقي، أرفع المجد والتسبيح لك .."

والقمح - مثلاً - فيه ألوهة. ومن ثم فهو يصلح قرباناً وسفيراً بين الإنسان والإله .

من أجل ذلك فحين يقدمه البابلي القلم قرباناً للإله، يستقبله في عشوع ويناجيه قائلاً:

"إن أرسلك إلى إلهي.

"فقد امتلأ قلبه سُحطا على .."

"أصلح بيني وبينه ..."

\*\*\*

وتظل فكرة الألوهة تتبلور وتتحدد في مصر القديمة تحت ضغط الصمير ودفعه، حتى تراها تفقد رويدا رويدا الكثير من تنوعها وتشكيلاتها ..

إن الألوهة في حس الصمير أكثر جلالاً ووحداية من تلك التشكيلات التي أقامها الفكر، سيما عندما دخل الكهنة الميدان،

وارتبطت مصالحهم المادية بالدين، ومن ثم فالضمير وهو يتسابع سيره يعكس على الفكر رؤاه فنرى الرغبة تسير ابجاء التوحيد مبندةً بالثالوث، منتهية إلى الوجدانية، وهناك نلتقى بهذه البصوص .

"كل الآهة ثلاثة، آمون، ورع، وبتاح، ولاتاني لهم"  
 إن عبارة "ولاتاني لهم" تدل على أنهم يجعلون الثلاثة واحدا.  
 وفي النص التالي يجد هذا المعنى في وضوح أكثر .  
 "هو الواحد: آمون، ورع، وبتاح — ثلاثهم معا".  
 إن تنوع الظواهر وسلطانها، أتاح الفرصة يومئذ لتنوع الآهة وتكثارها .

ولكن وحدة الكون. التي كان الضمير يحسها جيدا، ويدعوا الفكر إليها. كانت تلاشى شيئا فشيئا تأثير هذا التنوع على الفكر، وتدعوه إلى الوحدة .

وهكذا تركزت الألوهة في ثلاثة - آمون، ورع، وبتاح، شريطة أن يكونوا معا إلها واحدا . ولكن كيف يكون الثلاثة واحدا .. ؟

إن كل شيء ممكس في سبيل الوصول إلى "الواحد".  
 وهكذا يمضي النص فيقول :

"هر الواحد: آمون، ورع، ويتاح - ثلاثهم معا"

"آمون هو الإله، ورأسه رع، وجسمه يتاح"

هنا نلتقي بسذاجة التعبير، والشكل الخارجى لفكرة تنامت  
من حيث جرمها في السمو والبوغ .

وتجىء الخطوة التالية في التوحيد الحاسم حين يجىء  
"إخناتون".

إن "إخناتون" واحد من الأفراد الذين يختارهم الضمير أحيانا  
ليقوموا بعمل جيل أو أجيال

فيومذاك، وقبل الميلاد بسبعين وثلاثمائة وألف عام يوحى به  
إخناتون كل سلطانه كملك ضد التعدد الذى رآه شركا .  
لقد واجه بأس الكهنة وصراوة التقاليد الدينية للشعب كله  
بعزم فد .

وراح يهدم ويحطم جميع معانم الأصنام، ويلغى بحجرة قلم  
جميع طقوسها وشعائرها، معلنا أن "آتون" هو الإله الواحد  
الأحد، وليس هناك إله آخر معه ولا إله آخر سواه

ولكن ما هذا الإله آتون ؟..

إنه القوة اللاهائية .

إلى هذا وقصية اتوحيد تمصى على أحسن مايرام .

لكن الفكر لم يخلص بعد من شوائبه، ولا تزال الشمس  
صاحبة أعظم سلطان على الأتدة .

وإذن فلنكن هذه القوة اللانهائية حالة في الشمس .  
وليكن "آتون" إذن هو الاقتدار المائل الكامن في الشمس .  
ويعنى آخر. إذا كان لابد أن يكون للإله الواحد رمز  
فليكن رمزه الشمس .

ومهما يكن من أمر، فقد كان عمل "إخناتون" هذا الذي  
تم لحساب الصمير الإنساني كنه.. نقول كان وثبة في تاريخ  
قضية الإيمان والتوحيد.. والآن، فلنتعرف إلى إله الواحد "آتون"  
من خلال صفاته، كما نراها في الابتهالات والآناشيد التي  
وضعت يومئذ لنجاحاته ودعائه .

"أنت تبرز بحمالك في أفق السماء

"أنت يا آتون الحى الذى كنت في أزلية الحياة

"فحينما كنت تطلع في الأفق الشرقى كنت مملأ كل البلاد

بحمالك .

"أنت جميل وعظيم ومتلألئ ومشرق فوق كل أرض

"وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك .

. . . . .

"أنت خالق لخرثومة في المرأة  
والذي برأ من البذرة بشرا  
وجاعل الولد يعيش في بطن أمه

"ما أكثر تعدد أعمالك  
إنها على الناس مخافة  
يا أبها الإله الأحد

"الذي لا يوجد إلى جانبه إله آخر  
لقد خلقت الأرض وفق مشيقتك  
وحيثما كنت وحيدا، لاشئ معك  
"خلقت الناس والماشية والغزلان  
"وجميع ما على الأرض مما يمشي على رجليه  
"وجميع ما في أعلى ، مما يطير بأجنحته"

\* \* \*

وهنا وقد تجلت الألوهة بكل سلطاتها في إله واحد أحد،  
يظن الإنسان أحدا مكانه في دائرة الألوهة كذلك، فهو موضوع  
رعاية الإله بل هو "ابن" الإله، ففي الأنشودة نفسها يرى هذه  
الابتهالات

"إن جميع الناس سويت وجوههم

"لكى لا ترى نفسك بعد وحيدا

"إن ابنك إختاتون يعرفك

"فقد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك"

وفى تشبيه آخر يتהל فيه إختاتون إلى الإله الأحد، فيقول:

"أنت تشرق بجمالك يا آتون الحى يارب الأبدية

"إنك ساطع وقوى وجميل

"وحيك عظيم وكبير

.....

"كل ما خلقتَه يطرب أمامك

"ويفرح ابنك الجليل وقلبه فى حبور"

ولئن كانت صفة النبوة قد تكررت. مختصا إختاتون بها

نفسه. فإن ذلك م يكن يعنى نفيها عما سواه" ففى نفس هسدا

النشيد نلتقى هذه الفقرة .

"إيه أيها الإله الذى سوى نفسه بنفسه خالق كل أرض

وبارئ من عليها "

.....

"وأنت الأب والأم لكل من خلقه"



وبعد، فعذا يذهب "إحناتون" وتقتلع ثورة عارمة كل توحيد و نظامه، وتعود الآلهة والمعابد والكهنة . ولكن كل ذلك لا يحدى، فقد ظهرت قضية التوحيد في الوجود الإنساني كحقيقة ناجحة، ولقد رفع النضمير رأيتها حيث لا تستطيع يد أن تناهها، وستظل في مكانها تذكر العادين عبر الأجيال بالإله الواحد الأحد، حتى يجيء عصر النبوات ومعه اليقين 11..

وتدعم وحدة الكون نفسها في حركة الفكر، ولا يكتفى يومذاك بالوحدة المعنوية. بل تخلع عليها وحدة "بيولوجية" فتقول الأسطورة في مصر القديمة .

"كانت السماء مضطجعة على الأرض، ثم انفصلت عنها" أى أن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة لما كيف تم هذا الفصام .

فتقول الأسطورة : إن إله الهواء "شو" رفع السماء بذراعيه القويتين، وبقي ناهضا كأعظم عملاق.. قائما بين السماء والأرض.

وتتضح الوحدة البيولوجية أكثر في رؤياهم أن كل شيء خلق من الماء، فالماء أصل الحياة وأصل الكون . وهذه الوحدة الكونية تعكس آثارها على الإنسان بصورة

تدعم بها نفسها في شعوره وتفكيره .

فقد اعتقدوا يومئذ أن كل فرد إنسانى مرتبط ارتباطا وثيقا  
بحركة الفصول الأربعة وبحركات الكواكب والنجوم .. فى كل  
شئون حياته من مرض وعافية ورزق وحفظ وموت ..!!  
ووحدة الحياة كوحدة الكون .

فكل الكائنات الحية على الأرض أسرة كبيرة ؛ لأن الإله  
خالقهم جميعا .

وإذا كانت العبادة هى أسمى أعمال الإنسان وأرفع  
واجباته، فإنسها يومذاك لم تكن شرفا للإنسان وحسده .. بل  
والحيوان أيضا.

فالأنشودة التى يتهللون بها إلى الإله "رع" تقول :

"الفرقة تعبده ..

"والحيوانات كلها تقول بصوت واحد: الحمد لك" ..!!

\*\*\*

والحق أن تركيز الصمير على وحدة الكون كان عظيما  
وأكيدا .

لكانه كان يحس أن كل معانم الصمير الإنسان مرتبطة  
بإدراك هذه الحقيقة والعمل وفقا.

وفي استجابة الفكر لإلحاحات الصمير هذه.. نراه يثابر على توسيع اقتناعه بهذه الوحدة وتنمية مفهومها، حتى يتاح له يومذاك أن يرد عناصر الكون كلها إلى جوهر واحد ويرى إمكانية أداء عنصر، وظيفة عنصر آخر..!!

ولندع كتاب "ما قبل الفلسفة" يحدثنا فيجيب لنا هذه النقطة.  
 "...وأول دليل على أن عناصر الكون من جوهر واحد هو مبدأ التبادل. فقد كان من السهل على العنصر الواحد أن يحل محل العنصر الآخر

فالبيت يريد خبز لكي لا يجوع في العالم الآخر، فكان يقوم بسد حاجته هذه بضروب أخرى من الخبز فيصنع من الخشب أرعفة، توضع معه في قبره"  
 "وللآلهة عندهم أبدال آخرون، فإن ملك مصر، وهو أحد الآلهة، ذو طبيعة متحولة تجعل في وسعه الاندماج مع أقرانه الآلهة حتى يصير واحدا منهم ..

"والمصريون في هذا، لم يفرقوا بين الرمزية والمشاركة" "فإذا قالوا. إن الملك هو الإله حورس، لم يقصدوا بهذا أن الملك يلعب دور "حورس" بل يقصدون أن الملك هو "حورس" بالفعل.. وأن الإله حورس موجود فعلا في جسد الملك طوال فترة النشاط

المعين الذى يتطلب حلول الإله .. ١١"

\*\*\*

ولقد كان الأمر كذلك فى بابل، وكانت تذهب فى وحدة عناصر الكون وردها إلى جوهر واحد، نفس مذهب الفكر المصرى، وتعبير عنه فى أشكال مماثلة.

وسنلتقى برؤيا اضمير الإنسان عن الألوهة، ووحدة الكون، والخلود بعد ذلك فى الهند والصين، وأثينا، وفارس كل يعبر عنها وفق تجربته وتفكيره .

\*\*\*

ترى ماذا كان الامتداد الطبيعى لرؤى الضمير ؟..

لقد تمثل هذا الامتداد فى رؤيا عن العلاقات التى يفرضها وجود هذه الحقائق .

فإذا كان ثمت إله، وخلود، ووحدة بين عناصر الكون وقواه؛ فما هو الأسلوب الذى يحمل بالإنسان أو يتحتم عليه أن يعامل به هذه الحقائق .

وهكذا نلتقى بالضمير، وهو يستشرف "العلاقات" التى سيفاعل بها الإنسان وجوده مع الإلوهة، ووحدة الكون، والخلود - أو تعبیر أصبح؛ يستشرف "جوهر" هذه العلاقات .

نلتقي به وهو يثير القيم والأخلاقيات التي ستبث انتماسك وإرادة الصمود في الصفوف البشرية، وسيبلغ في تقديسه لها الحد الذي يراه يخلق عليها أو عني أمهاتها ألوهة وتقديسا يتبديان في عمل الفكر حين يجعل العدالة لها اسمه "ماعت" ..

قد تجلت الحياة عظيمة أمام الصمير الإنساني ، فسأل نفسه: ما أعراض هذه الحياة ؟..

ثم مضى في سعيه النبيل، وارتباده المستبسل يبحث في طريق الحقيقة عن الجواب.

ولسنا نزرع أن أعراض الحياة جميعا قد استبانة للضمير مرة واحدة في ذلك العهد السحيق .

ولما استطاع يومذاك أن يدرك منها ما يكفي لأن يتصور الناس به جلال الحياة ويصوعوا مسعاهم وسلوكهم وفق هذا التصور وهذا الإدراك .

ولعل مبتكر الأمر كله يمثل لدى الصمير في اكتشافه مسئوليات الإنسان وكيف يعيش "مواطننا صالحاً" في كون الله... ذلك أن الصمير الإنساني لم يتصور يوماً أن في هذا الكون الرحيب فراغاً، أو أن فيه سلبية وبطالة .

فهو ممتلئ بالحركة العامرة بسر الألوهة.. وكل شيء فيه

يعمل، إذ له دور يتحتم عليه أدائه .

وللإنسان كذلك دوره الكبير العارم فكيف يؤديه ؟

إذا كان هناك وحدة كربية تربط الكائنات جميعها بعضها ببعض . فإن هناك لاربيب وحدة إنسانية تجعل الإنسان للإنسان صديقا وأخا .

وإذن فأول ما يتحتم توفره لتستطيع البشرية أداء دورها هو هذا الانسجام بين أفراد النوع كله .. تماما كذلك الانسجام القائم بين كل أشياء الكون - أرضه وسمائه

إنه تقديس الرحم الإنساني . القرابة الإنسانية التي تتمحور للمعنس البشرى أن يضع التعاضد مكان التعادل ، والحب مكان الكراهية والإقناع مكان الخنجر ..

ولكن كيف نحيا هذه الرحم ؟

كيف يجد الإنسان أخاه بدل أن يفقده ؟..

كيف تسهزم القرابة القطيعة ؟..

إن الضمير يعرف - ولسوف يجيب ..

وهو خلال بحثه عن الجواب سيكشف لنا العدل، والحب والصدق، والتصحية، والشجاعة، والأمانة، والحرية، والكرامة، ومساها من أخلاقيات التقدم الإنساني وضروراته.

وسيتخذ من تقديس الأسرة دائما وسيلة لتدريب كل  
مصائل المحبة والصداقة.

فما دام الإنسان مفطورا على حب نفسه، وأبويه، وإخوته  
وأقربائه، فإن كل تنمية لقوة الحب داخل هذه الدائرة - دائرة  
الأسرة والعائلة - تهيئ للحب فيما بعد فرص الانتشار العظيم،  
حتى ينال الناس جميعا ..

وهو كلما تم له اكتشاف فضيلة تباها وحلح عليها من  
الحمية والقداسة ما يزجر كل تفريط فيها أو عدوان عليها.  
وإنه ليتذر أفسراد للنوع الإنساني سلفساء بأنهم لن  
يستطيعوا أن يحترموا هذه الأخلاقيات في العلن ويخونوها في  
السر.

ذلك أن في كيان كل فرد وتركيبه ما يكشف عباؤه ويعلن  
طويته سيما أمام الله الذي يسمع كل شيء ويراه .  
ومع كل فرد - كما سيصور الفكر - قرين، يسمى الـ "كا"  
يخصي أعماله، ويسمع هواجس نفسه، ويصير خائنة عينه..  
وكل إنسان مسئول أمام الله؛ وأمام الـ "كا" .. هذه الروح الحائلة  
فيه أو اللاصقة به .

وفي تلك البدايات المبكرة والقرية أيضا، نجد الضمير يركز

على العدل وتكافؤ الفرص تركيزاً كبيراً .

فحين يطالع حركة الفكر القلبي، والفكر الأشوري والبابلي، نجد الكلمات كلها صداحة بالعدل، لاسيما في مصر حتى نكأننا نراعى لهم العدل يومئذ، وكأنه نور سواه أو على الأقل قبل سواه، القانون الذي تقوم به السماء والأرض.

ون كل شعيرة وقربان ليفقدان مع الظلم قيمتهما .

يقول الفكر المصري القديم :

"إن فضيلة الرجل المستقيم ، أحب إلى الله من ثور الرجل الظالم - يعني قربانه -"

\*\*\*

"إن العدالة خالدة الذكرى، فهي تنزل مع من يقيمها إلى القبر، ولكن اسمه لا يمحى من الأرض"

وبصدت الضمير بترجمها الفكر في آيات مشرقا تلتقي بها في تعاليم أمموي، وبناح حنب، وكاجني، وغيرهم من حكماء مصر الأقدمين.

"احذر أن تسب فقيرا بائسا

"وأن تكون شجاعا أمام رجل مهيب

"ولا تجعل نفسك رسولا في مهمة ضارة"



"لا تزحزحن الحد الفاصل بين الحقول  
 "ولا تطمعن في ذراع أرض  
 "احذر رب العالمين  
 "ولا تعتدين على حرث آعر  
 "إن المكيال - الواحد - الذي يعطيكه الله، خير من خمسة  
 آلاف تكسبها بالبعى  
 "وأرغفة تكسبها بقلب فرح  
 "خير لك من ثروة مع شقاء"

\*\*\*

والعدالة الاجتماعية التي تجعل الناس سواء فيما رزقهم الله  
 من فضله، هي الشغل الشاغل يومذاك للضمير والفكر وإيا  
 لنعجب ! كيف، وقبل الميلاد بحوالى أربعة آلاف عام كانت هذه  
 الإشاعات مثلاً الحياة في إلحاحها العظيم هذا...!! وكيف كان  
 الضمير والفكر يتبعان دقائق السلوك الإنسانى التي يمكن أن  
 تنحرف بالناس عن طريق العدل الاجتماعى وتبعاته ..  
 لننظر ..

- "إذا أصبحت عظيماً، بعد أن كنت صغير المكانة ..  
 وصاحب ثروة، بعد أن كنت محتاجاً...، فلا تنسى كيف كنت

حالك في الرمن الماصي، ولاتبعين بثروتك التي أتتك منحة من  
إله، فإنك لست بأحسن من أقرئك الذين حل بهم الفقر".  
"احذر لشراة، فإسها مرض عضال، والصدقة معها  
مستحيلة".

\*\*\*

"لا تأكل الخبز أمام من لا يجده، دون أن تمد إليه يدك بالخبز"

\*\*\*

لا تصنع لنفسك معبرا على النهر ثم تجاهد بعد ذلك  
لتجمع أجره "

"خذ الأجر من الرجل صاحب الثروة .."

"ورحب بمن لا يملك شيئا"

\*\*\*

لقد داعت هذه التعاليم في عصرنا المديد، وكان لها من  
الاحترام ما جعلها إرادة الضمير حقا، وما جعل لها يومذاك بين  
أهلها وذويها حرمة القانون ونفاذه .

\*\*\*

ويرتبط العدل بالحكومة ارتباطا يجعل مصير الاثنين واحدا  
في تلك التعاليم ..

"إن كنت رعيما في يدك تصريح الأمور، فاعتنم كل فرصة كريمة لتجعل تصرفك عاديا من كل عطاء، والعدالة ما فائدتها، ومنفعتها باقية، ولم يعبث بها أحد منذ زمان صانعها، سيما القصاص في انتظار كل من لا يأخذ بقوانينها"

\*\*\*

ومنذ عهد "أسمحات الأول" يوضع تقليد يفرض على كل من يتولى الوزارة أن يحفظ هذه الوصية ويقسم على احترامها — وهذه بعض فقراتها .

"أعزم أن الوزارة لاتعني إظهار الاحترام لأشخاص الأمراء والمستشارين"

"وليس العرض منها أن يتخذ الوزير لنفسه عيدا من الشعب".

"واعلم أنه عندما يأتي إليك شك من الوجه القليل أو من الوجه البحري أو من أى بقعة في البلاد، فعليك أن تطعن إلى أن كل شيء يجرى وفق القانون وأن كل شيء قد تم حسب العرف الجاري، فتعطي كل ذي حق حقه ..

"عامل من تعرفه، معاملتك من لاتعرفه"

\*\*\*

ولقد سرت العدالة في شرايين الحكم حتى لم يكن لحاكم  
أو موظف كبير ما يفخر به مثل أن يكون عادلا .  
وتحفظ لنا الآثار نقوشا باقية على مقبرة "أمينى" أحد الأمراء  
المصريين حوالى "٢٠٠٠" قبل الميلاد، يتحدث عن نفسه ومناقبه  
فيقول :

"لا توجد بنت مواطن قد هبشت بها

"ولا أرملة عذبستها .

"ولا فلاح طردته

"ولاراع أقصيته

"ولا يوجد بئس بين عشيرتى

"ولا جائع في زمنى

"وعندما كانت تحمل بالبلاد سنون محدبة، كنت أحسرت

كل حقول المقاطعة، محافظا على حياة أهلها، ومقدما لهم

الطعام حتى لا يبقى فيهم جائع"

"وقد أعطيت الأرملة قبل ذات البعل

"ولم - أميز - الرجل العظيم، فوق الرجل الفقير، في أى

شئ أعطيت "

"وحتى حين أقل الفيضان العظيم بالعلال والخيرات لم أجمع

المتأخر من الضرائب" ..!!

كم هذه الكلمات من مذاق حلو، وروعة آخدة.. لكأن  
الصمير الإنساني هو الذي يتحدث إلينا ويروي طرفاً من أنبائه.

ويرسل "كاجي" إحدى صيحات الصمير:

ـ "أقم العدل لتوطد مكانك فوق الأرض"

"وأس الحزين، ولا تعذب الأرملة".

ثم يعبر عن قانون القصاص تعبيراً تهاى في الروعة والقطعة

فيقول :

"إن الروح تذهب إلى المكان الذي تعرفه ."

"ولا تحيد في مسيرها عن طريق أمسها" ..

أجل .

إن الروح لا تحيد في مسيرها عن طريق أمسها، فهي تمشي

في ضياء عملها الطيب أو في ظلمة عملها الحيث .

وهي لن نجد غداً، إلا ما قدمت اليوم.. ومصير كل إنسان

ليس سوى الحلقة الأخيرة في سلسلة أعماله ومساعيه وحياته .

من قدم المعدلة، وجد النجاة، ومن يزرع الرياح، يحصد

العاصفة..

\*\*\*

والمساواة بين الناس في حقوق الحياة تمثل من ذلك اليوم  
البعيد الوجه الآخر للعدل .

ولقد أدرك الضمير منذ البدء أن جميع الناس حقوقا  
مكافئة وأن كل تفاوت وتمايز تشنهما لمواضعاب الباطلة  
لحياتهم وغرورهم، فليسا سوى تحد لمشبهة خالقهم سبحانه .

ومن ثم كانت مصر كلها تردد أيام المملكة القديمة،  
والمملكة الوسطى هذه لكلمات وهي عى لسان الإله .

ـ "لقد صنعت الرياح الأربع؛ لكى يتنفس . منها كل إنسان  
كزميله إبان حياته ..

"لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة؛ لكى يكون للفقر فيها  
حق كالعظيم ."

لقد صنعت كل إنسان مثل غيره من الناس

\*\*\*

ومن العدل يصجر الضمير كل فصائل الحياة؛ والاستقامة  
والتواضع والصدق، والبر، والخفة، والثقة بالنفس وبالغير،  
والشجاعة، والأمانة ..

كل هذه الأخلاقيات، سيمضى الصبر فى الإيعاز بها  
والحرص عليها، باعتبارها أركان كل حياة عادة .

.. "إن الصدق جميل، وقيعته خالدة ..

"وقد تذهب المصائب بالثروة، لكن الصدق لا يذهب بل  
يمكث ويبقى"

\*\*\*

"لا تتكلم مع إنسان كذبا؛ فذلك ما يحقته الله، ولا تفصل  
قلبك عن سابك حتى تكون كل طرقك ناجحة"

.. "ول ظهر لك لتلك الكلمات الكثيرة التي ينبو عنها السمع،  
فإن العصا المعوجة الملقاة في الحقل يجعل منها الصانع سوطا  
للحاكم، أما قطعة الخشب المستقيمة، فيصنع منها لوحا للكتابة".

\*\*\*

.. "ومن فعل فاحشة فإن المرقأ يفلت منه، وأرصت الليلة  
تحمله بعيد"

\*\*\*

.. "لا تفرح من أجل ثروة أتت عن طريق السرقة"

\*\*\*

"كن ثابتا أمام غيرك من الناس؛ لأن الإنسان في مامن بين  
يدي الله .."

"وإن الممفوق من الله هو من يزور في كلامه، لأن أكبر

شيء يكرهه الله هو النفاق"

\*\*\*

- "لا ترقد في الليل متخوفا من العد" ..

"إد لا يعلم الإنسان ما سيكون عليه الغد ..

"فالله دائما في تدبيره ..

"والإنسان في ظنونه ..

"كن حازما في قلبك وثابتا في عقلك"

\*\*\*

- "لا تسخرن من أعمى، ولا تهرأن من قزم" !! ..

\*\*\*

- "لا تلعن أكبر منك سنا، لأنه شاهد الله قبلك"

\*\*\*

- "لا تتكلم على مال إنسان آخر؛ ولا تقولن إن والد أُمي

له ييب. لأنه إد، جاءت القسمة مع إخوانك فإن نصيبك لن

يكون إلا مخزنا ..!!

\*\*\*

- "قدم قربانا لإلهك، ولا تتخذ حدوده، ولا تسأل عن

صورته، ولا تمش الخيلاء في موكب، واحترم اسمه؛ لأنه هو الذي



يعطى القوة جميع المخلوقات"

\*\*\*

ـ "ضاعف مقدار الحيز الذى تعطيه أمك..

"واحملها كما حملتك ..

"نقد كان عبؤها ثقيلا فى حملك .

"وبعد أن ولدتك، حملتك مرة أخرى حول عنقها.

"وقد أعطتك ثديها ثلاث سنوات، ولم تشمئز من

فضلاتك ولم تتبرم، ولم تقل: ماذا أفعل أنا.

"ولقد ألحقتك بالمدرسة عندما تعلمت الكتابة..

"وكانت تقف كل يوم هناك خارج المدرسة تنتظرك باخيز

والجعة ..

"فحينما تصبح شابا، وتتخذ لنفسك زوجة، وتستقر فى

بيتك، اجعل نصب عينيك كيف وضعتك أمك وكيف ربك

بكل الوسائل .. فلا تجعلها تشكوك إلى الله وترفع إليه عويلسها

ملك".

\*\*\*

هذه بعض سمات النموذج ومعالجه.. النموذج الذى كان

الصمير ينشئه ليصوغ وفقه 'الإنسان العادل' و'المواطن الصالح'

في كون الله .

وبهذه المحاولة كان الصمير يكتشف عالم القيم، ويضمخ الحياة الإنسانية بأخلاقياتها التي تجعل لها عبداً وممجة، وسخطو الآن مع الصمير الإنساي خطوة أخرى إلى الأمام لتبصر نفس محاولته في بقاع أخرى من أرض الساس، ونمادح أخرى بين صفوف البشر .

\*\*\*

نفس الآن في الهند . الهند القديمة قبل الميلاد بألف عام وإن شئتكم المزيد فألقى عام ..

وهذا الربيع العذب الآتي من بعيد، إنما هو صدى اللحن الدهر الذي يعرفه الصمير في تلك البلاد الخافلة. إن ثمت مملكة عظمى للصمير.. الحكماء، والعبياد، والزاهدون، المثبتون للحقيقة والخير - يقبلون وجوههم في السماء وفي كل شيء باحثين عن الحق .

و لصمير هناك يتابع رحلته ومسيره .

والألوهة، والخلود، ووحدة الكون، ومملكة الإنسان - هي شغله الشاغل.

ما الله ، يومذاك في الهند .. ؟

- "الله كائن في الأشياء كلها

"إنها صورته الكثيره

"وليس يعبد الله إلا من يخدم سائر الكائنات جميعا"

\*\*\*

ما أروع هد ..!!

إن الضمير ليكشف للألوهة أبعادا جديدة. فإنها بهذا

المعنى ليست شيء مجردا، ولا معزولا عن العالم في صومعة

مقدسة.. إن الله بقدرته وأسراره في الأشياء جميعا .

والعبادة، لم تعد إذن مجرد قربان ذبيحة تقدم لله في

الهياكل.. بل إنها في حقيقتها - خدمة شاملة للكائنات كلها.

وكن ما الله أيضا..؟

نريد مزيدا من المعرفة به ..

وهنا يتحدث الضمير من خلال سفر "رح" أحد أسفار

"الفيد" فلنصغ إليه .

- "لم يكن في الوجود موجود ولا عدم

"فتلك السماء الوضائة لم تكن هناك . وكانت برودة

السماء مشورة في الأعالي .

فماذا كان العطاء إذن ؟ ماذا كان الموتل ؟ ماذا كان

المخبأ...؟

"أكانت هي ألباه بهويها انذى ليس له قرار ؟  
 "و لم يكن ثمت موت، ومع هذا لم يكن هناك ما يوصف  
 بالخلود ..

"و لم يكن فاصل بين النهار والليل .  
 "والواحد الأحد لم يكن هناك سواء  
 "و لم يوجد سواء منذ ذلك الحين حتى اليوم  
 كانت هناك ظلمة  
 'وفى لبدء كان كل شئ تحت ستار  
 "من ظلام عميق محيط بغير ضياء  
 'والجراثومة التي لم ترل كامنة فى المحاء، وبررت طبيعة  
 واحدة من الحر الحرور

'ثم أصيف إلى الطبيعة الحب ..  
 "وهو اليسوع الحديد للعقل .."  
 ونمضى هذه الحكمة اليانة متسائلة، وفاحصة، حتى تقول:  
 من ذا يعمم السر البدين...؟

من ذا أعلنه ها ؟

'من أين...؟ من أين جاءت هذه الكائنات ؟..؟"

ثم يشير إلى الآلهة الكثيرة التي اتخذها الناس عبر الأجيال والأزمان رمزا للألوهة ، وللقوة الخلية التي تبعث الحياة في كل حي ، فيقول عن هذه الآلهة الرمزية :

"إن الأمة نفسها، جاءت متأخرة في مراحل الوجود.

"فمن ذا يعلم، كيف جاء هذا الوجود ؟؟..

ثم يعلو ربيس الحكمة، ويتصدر الضمير العليم موكبها فيعلن:  
"إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم .

"سواء خلقه بإرادته أم صدر عنه وهو ساكن

"لهو ربا الأعلى في السماوات العلى" ..

\*\*\*

هذا نمو واضح في إدراك الألوهة.. ترى نمر الضمير هذا؟

أم نمر الفكر الذي يعبر عن الضمير؟ أم —موهما معا؟

إن الفوارق تستبين الآن بين الآلهة، والألوهة وبين الإله والله .

فإذا كان الناس من قبل قد اتخذوا لأنفسهم آلهة، فكان لكل بلد إله، وأحيان لكل عائلة إله — مقدس يرهبها الألوهة نفسها كقوة وحقيقة.. فقد أن لهم أن يعلموا أن "الله" هو "جماع" هذه الحقيقة، وأن "الله" الذي صدر عنه كل مخلوق

وكائن، هو الرب الأعلى، وأن "الله" بقدرته وعلمه محيط بكل شيء ..

وسيعبر الفكر عن هذا في تنوع ورمزية تقوده كعادته  
— رعة الافتراض والمبالغة، وهنا يلتقي به يسمى الله "أتمان"،  
ويرى في "أتمان" روح العالم.. وهو منبث في كل شيء.. وفيينا  
نحن بني الإنسان بصورة عاصفة .

فأنت إله.. أنت "أتمان" بقدر ما تحرز من تفوق وصفاء  
والآن فلننظر.. إن تلميذا هنديا يتقدم من معلمه ويسأله عن  
جوهر الكائنات: أين هو ؟.

ويلور هذا الحوار :

المعلم : هات لي تينة من ذلك التين يولدي .

التلميذ: هذه هي يامولاي .

— اقسمها نصفين.

— قد قسمتها يامولاي .

— ماذا ترى فيها ؟..

— أرى حبيبات دقاق يامولاي .

— تفضل واقسم حبيبة منها نصفين يولدي .

— قد فعلت يامولاي .

— ماذا ترى هناك ؟..

لست أرى شيئاً على الإطلاق يا مولاي .

وهنا يجيبه المعلم :

حقاً يا ولدي العزيز، من هذا الجوهر الذي لا نستطيع رؤيته،

سنت شجرة التين العظيمة .

"إن روح العالم — يا ولدي — هو جوهر الذي ليس في دقته

جواهر سواه .

"إنه الحق . إنه "أتمان" .. إنه أنت يا ولدي العزيز" .

\*\*\*

وسوف يمسح الضمير مجالاً لمن يشك ويتساءل، والشك

أحد وسائل كشفه وبقينه .

وإنه إذ يسمع قولهم، ليجبهم على لسان "براهم" .

"إنهم ليخطئون الحساب، من يخرجوني من الحساب" ..

إن الضمير الإنسان في جوارحه هذه، في الهدى القديمة قد

أعطى البشرية جرعة شرب طويلة ومباركة

وفي حكمة لا تعيص عدوبتها على للإحساء، والحب،

والرحمة أعذب ألقاه .

وها هو ذا يتألق تألقه الباهر الودود في شخص "بودا" .

فحين يرى لضمير كثيرا من الكهنة يتخذون الدين والعبادة سبيلا لإشاعة الكآبة في الحياة، ولجعل تكليفها الفاضلة أعباء قاسية تنوء بحملها الأفئدة، يلقي يومئذ في روع واحد من الأبرار كلمته الجديدة التي يحيى بها روح الإنسان .

هنالك يهص "بودا" مزودا بحبرة عظيمة عن بؤس الإنسان، ومهيا بطاقات ريانة ستضع نفسها في خدمة كل ما هو إنساني وخير .

ولسوف يبدأ في تعبيره عن مشيئة الضمير الإنساني، بالنهي عن القتل بالحياة .

تري كيف يكون سبيله لهذا، ومنهاجه ؟.

إنه ذلك السهل الممتنع .. الخب .. !!

فالحب والصفح الجميل ضرورة الحياة لكي تدوم الحياة ..

ألا فليشد "بودا" بتعاليمه الخالدة .

أو بتعبير أصح، ليشد الصمير من خلال بودا .

ـ "إذا أساء إلى إنسان عن حمق؛ فإن سببي بوقاية نفسي

من إساءته، هو أن أحبه حبا خالصا ..

"ولئن زادني إساءة ، لأزيد به خيرا ."

\*\*\*



هذه مشيئة الصمير إدد، الارتفاع بالعلاقات الإنسانية فوق  
مستوى لكرهية والتأثر... وتحريرها من سيطرة الشر عليها.  
ولسوف يكون بودا يومئذ حير ممثل للضمير؛ لا في الدعوة  
إلى هذه الحقيقة محسب. بل وفي السير بسلوكه وفقها.  
فدات يوم يأتيه أحد أولئك الذين يمارسون السفيه في  
شره كبير، ويتطاول على "بودا" ويمس في الإساءة إليه  
فيسأله بودا :

- "أحبرني يابني..

"إذا رفض إنسان أن يتقبل مسحة قدمت إليه.. فمن تـرد  
هذه المنحة ..؟

ويجيب الرجل: "إنها ترد إلى صاحبها ..

وهنا يقول "بودا" :

- "إي إدد يابني أرفض قبول إهانتك، وأتمس منك أن  
تحتفظ بها لنفسك.

ويسعى الصمير لتحرير العادة من كل ما يهش روحها  
ويحرمها السمو الخلق بها.. ويشيئ لكل إنسان معبده في  
ضميره وقلبه .

وها هو "بودا" يقول ليرهي جاء يستأذنه في السفر إلى

"جايا" ليستحم في مائها .

- "ولمادا السفر إلى "جايا" أيها البرهمي ..؟

"كن رحيما بالكائنات جميعا ..

"ولا تنطق كدبا ..

"ولا تقتل روحا .

"ولا تأخذ ما لم يعط لك ..

"وعش أما في حدود إنكار ذاتك ..

"وساعتئذ ، س تكون بحاجة إلى السفر إلى "جايا"

"إن كل ماء يكون عندئذ "جايا" ..!"

\*\*\*

• - والمساواة حقيقة لاياتيها ريب، ولن يكون ثمت حب،

ولا إحاء، ولادين ما بقي الناس سادة وعبيد .

- "انتشروا في كل الأرض ..

"وبشروا بهذه التعاليم ..

"قولوا للناس، إن الفقراء، والساكنين، والأغنياء والصفوة -

كنهم سواء ."

هكذا قال بوذا لتلاميذه .

• - وحرية لصمير، التي تجعل الناس مبدعين لامتلاكهم .

وأشخاصاً حية لا طلالاً ولا دمي، تجدد يومذاك في بودا محاميتها  
القدير .

فعلى كل فرد من الناس أن يهيء نفسه ليمتلك مفسادير  
حياته وأزمة مصيره .

وم يهيء نفسه ..؟ بالمعرفة ..

- "إن كل من صار لنفسه مصباحاً يهدي ، وملاذ، يؤوى،  
فمن يلتبس لنفسه من غير نفسه مأوى .  
"وسيستملك بالحق مصباحاً، فلا يطلب من غير نفسه  
ملاذا .

"أمثال هؤلاء هم الذين يبلغون الدرى العالية ..

"شرطة أن يكون هم بالمعرفة شعف عظيم ."

\*\*\*

إن تحرير الضمير الفردى من التبعية العمياء المتقائمة وتحريره  
من الكراهية والصعن، هو الملح المحيد الذى يغنيه الصمير  
الإنسانى فى تلك الحقبة وتلك البقاع .

ولقد غناه من قبل على نحو سريع فى مصر القديمة، وبابل  
أما اليوم فإنه يفرد له وقته ومعارفه .

هيبما كان فى الهند يحمل عصا المايسترو أمام بودا،

وحكماء الهند الكثيرين، ليشهدوا ويعنوا حرية الضمير، والإحياء  
واعجبة... كان كذلك يفعل، في الصين القديمة مع  
"كونفشيوس"، و"لودزه" وغيرهما من حكماء الصين .

وكانت آفاق الصين تردد هذه الآيات :

إذا لم يقاتل الناس فإن أحدا على ظهر الأرض لن يستطيع  
أن يقاتلك .

"أنا خير للأخيار، وخير لغير الأخيار؛ وهذا يصير الناس  
كلهم أخيارا ..

"أنا مخلص للمخلصين، ومخلص لغير المخلصين، وهذا  
أجعل الناس كلهم مخلصين" .

هذا هو الحب العميق للناس جميعا محسنهم ومسيئهم .  
وهذا هو البلسم الذي يشفي القلوب من الكراهية والحقد .  
ولكى يصبح الحب على هذا النحو واقعا إنسانيا، وليس  
بمجرد أمنية طيف، فإنه ينبغي أن يكون هناك توازن بالحق  
والمعروف .

ويوضح الفيلسوف الصيني 'مودي' مشيئة الضمير في  
كلماته هذه .

- "يجب الناس كلهم بعضهم بعضا.

"فلا يفترس أقوياءهم ضعفاءهم.

"ولا يردى أغنياءهم فقراءهم.

"ولا يسفه كبارهم صغارهم.

"ولا يخذع الماكرون منهم السذج".

وفي الشؤون الدولية ترجم الصمير لإسلى الحب إلى

مدأين أساسيين :

أولهما - نبذ الأنانية وشهوة الفتح

ثانيهما - نسزع السلاح من كل العالم .

ولقد كان الفيلسوف الصينى "مودى" وتلميذه "سويج بنج"

و"جونج سون لنج" أصحاب دعوة هائلة في عصرهما لنزع

السلاح مما جعل الإمبراطورية الصينية تكافح في عصف دعوتهم،

وتحرق آخر الأمر مؤلفاتهم .

ولكن على الرغم من ذلك، فإن الصمير الإسلى قد رفع

في ذلك الحين البعيد راية جديدة اسمها "نزع اسلح" وسظل

تحقق عبر القرون.. تنادى الناس وتذكر الأجيال بالمرفاً ابوحيد

لحياتهم

أجل. فقبل ابلاد بثلاثمائة عام، أى مد أكثر من ألفى

عام جمع الصمير الإسلى كل خبراته عن الإخاء العالمى وصاعها

في هاتين الكلمتين - سرع السلاح - ولسوف يرى مثابرة على تحقيق هذا المبدأ منذ أمس البعيد حتى يومنا المائل.

\* \* \*

وبلاعتداد باندات، وتحرير الضمير الفردى من الرضوخ نصيب كبير في المحاولة الدائبة :

- 'إذا لم يستطع المرء أن يقول: هذا رأيي فإنى لأستطيع أن أسدى إليه نفعاً..

هكذا كان يقول "كونفشيوس" ثم يستطرد قائلاً:

- "وإنى لأفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته، ولأقدم العون لهذا الذى يعجز عن الإفصاح عما فى نفسه"  
وفى هذا الفكر الثاقب الذى يعبر عن الضمير الإنسانى تعبيراً سديداً يبلع الإصرار على حرية الضمير مداه .

وحرية لضمير تتطلب المعرفة المستمرة، فالذى يشغله ملء بطنه بالطعام عن ملء عقله بالمعرفة، ليس إنساناً وإنما هو "وباء"  
كما أن حرية الضمير تعنى الأمانة فى التفكير، والإخلاص فى نشدان الحق.

وما لم تتوفر هذه الضرورة الإنسانية، فإن الفساد - كما يرى كونفشيوس يأخذ بخناق العالم كله.

واستمعوا له؛ وهو يقول منذ أكثر من ألفى عام:  
 "إن العالم في حرب وعوضى؛ لأن الدول التي تحكمه فاسدة  
 الحكم

"وهي فاسدة الحكم، لأن نظام الأسرة فاسد .  
 والأسرة فاسدة لأن الفرد مضطحل .  
 "وهو كذلك، لأنه عبد أطماعه وهواه ..  
 "وهو عبد أطماعه وهواه؛ لأنه لا يعرف الحقيقة.  
 وهو لا يعرف الحقيقة، لأنه غير مهتم في تفكيره.  
 "فالأمانة في التفكير، والإخلاص في شدة الحق هما بداية  
 الطريق" ..

قد يبدو في هذا التسلسل، أو هذا السلم المنطقي الذي  
 صاعه "كنفشيوس" شيء من التكلف. بيد أن النتيجة النهائية التي  
 جعلها بداية الطريق، والتي هي شدة الحق في أمانة وإخلاص  
 لا مبالاة فيها

\*\*\*

وفي الأخير كذلك أيامئذ، تستقر عقيدة الألوهية على  
 الحق، أو على ما هو أقرب إلى الحق منه إلى الأسطورة، فيعد أن  
 كان الإله الأكبر لخلق هي السماء، يعبدونها الناس؛ ويقدمون

لها انقرايين - أصبح الإله هو "الشانح نى"، أى القوة العليا المسيطرة بعلمها وقدرتها على العالم كله .

لقد حقق الضمير الإنسانى هنا على الوثنية نفس الانتصار الذى حققه فى بقاع أخرى.

يبد أن انتصاره هذا سيظل شديد الحاجة إلى دعم كبير لن تواتيه فرصته إلا فى البهوات .

وكانت "وحدة الكون" رؤيا تلك العصور فى الصين فالسما والارض والبشر - كل أولئك يسرون وفق قانون واحد وقواعد واحدة .

كما كان "الخلود" رؤيا واضحة لديهم، حتى لقد ختسار تفكيرهم يومئذ - عبادة الأسلاب - وتقدم قرايين يومية للموتى، باعتبارهم أحياء خالدين. بل ويمكلون لدويهم من الأحياء نفعا وضرا.

\*\*\*

فى تلك العصور الخوالى، كان الضمير يغمس بإشعاعاته وإلحاحاته بلدا آخر اسمه "أثينا"

وعن طريق الفلسفة الحرة بث الضمير الإنسانى رؤاه .  
وهناك نلتقى به معنيا بتحويل الصدقة البشرية للكون إلى



نظرية عملية تهدف إلى كشف قوانين هذه الصداقة والزمالة.  
إن عصر الإنسان يوشك أن يقبل، وعلى الإنسان أن يتسهيأ  
لا استقباله.

عليه أن يذوق آخر مخاوفه من المجهول ، وذلك بمريد من  
التعرف إليه .

وهكذا تبدأ المعرفة بمعناها العلمي، فتأخذ مكانها السامق  
بين القيم الإنسانية .

وسيكون شعاره في هذا الشوط: اعرف ..

- اعرف الكون الذي تعيش فيه ..

- اعرف نفسك ..

- اعرف كيف تعرف ..

- أجل.. إن المعرفة ليست من مملكة العقل، بقدر ما هي من

مملكة الضمير

فإذا ما استنصر الخلدس الإنساني قواه في أثناس يومذاك،  
فاكتشف "أنكساجوراس" أن الشمس كرة ملتهبة أكبر من  
اسيرطة، وأن القمر كرة من تراب لا يضيء وإنما تعكس عليه  
أضواء الشمس.. وأن كسوف الشمس يحدث بوقوع القمر في  
دورانه بينها وبين الأرض، كما أن خسوف القمر يحدث حين

تقع الأرض في دورانها بينه وبين الشمس ..

وإذا جاء "طليس" ليقول: إن أسات وحيوان يعذيان بالرطوبة، ومبدأ الرطوبة الماء.. وما يتغذى به الشئ فمعه يتكون، إذن فمبدأ الحياة الماء .

وإذا جاء "هرقليطس" ليعلن أن "التغير هو صراع الأضداد لياخذ بعضها مكان بعض إذ الشقاق أبو الأشياء كلها" أي واضعاً بذلك مبدأ "الديالكتيك" الذي ستبنى عليه فيما بعد فلسفة هيكل ، وماركس.

وإذا جاء "ديقريطس" و"أبيقور" و"ألفيبوس" ليحدثوا بأن الكون يتألف من ذرات تنهت في الدقة والقوة معا .

إذا حدث كل هذا يومئذ، فليس ذلك من سمات الذكاء الإنساني بقدر ما هو أولاً وآخرها من سمات القيم والفضائل .

فالصمير الإنساني الذي عاينه إنشاء المدينة الفاضلة للإنسان فوق هذه الأرض، يحس ويعي أن نجاح محاولاته يتوقف عسى معرفة الإنسان لأسرار الطبيعة والكون، وتطويع قوى الطبيعة لحاجاته.

وحين تتحول المعرفة العلمية إلى حضارة تنهض بها وعليها كل مجالات الحياة، فإن الكفاح الأخلاقي للصمير يزداد

هكذا قربا من فوزه وأهدافه.

لقد وعى الضمير منذ فجره وصباحه، أن الانطلاق الروحي للبشرية توأم لتقدمها المادي، وأن كلا منهما يأخذ من أخيه ويصب فيه، وأن أي تناحر سلبى يعشى علاقتهما، فسيكون مرده ومآتاه قصوره في وسائل الإنسان نفسه .

محاولو الضمير بالمعرفة في كل أنواعها، حفاوة بالمعراج الأخلاقي نفسه الذي يشيده الضمير للإنسان.

من أجل هذا كانت المعرفة كقيمة تتجلى في إلحاحاته منذ البدء وإن كانت ستبلغ في عقول فلاسفة أثينا والهند المدي الذي يجعل منها "موصلا جيدا" بين التراث الإنساني الخافل، وبين عصر العقل الذي سلتقى به بعد حين .

ونقول . فلاسفة الهد، لأن الهد القديمة شهدت من ذلك الطراز أروع .

فقد كان هناك "كاندا" الذي نادى بأن 'العالم مليء بالأشياء التي ليست سوى تركيبات مختلفة من الدرات تشكلت في أشكال مختلفة'.

بل ويذهب إلى أبعد من هذا فيعلن: "أن أشكال المادة يمكن أن تتحول وتغير، أما الدرات ذاتها فباتية لا فناء لها".

وكان هناك "شاكارا" الذى سبق الفيلسوف الفرنسى  
 "كانت" بألف عام - وكان - كما يرى ديورانت - المهد  
 الحقيقى لفلسفته .

\*\*\*

ويعود إلى أثينا حيث يتابع الصمير دعم المعرفة كقيمة من  
 قيم الحياة العليا.

والآن، فالإنسان مدعو لأن يحرر المعرفة نفسها من كل ما  
 ينحرف بها عن الحقيقة.. أى يعرف كيف يعرف .

ومدعو لأن يحرر نفسه من كل ما يشيع الشك فى قدرتها  
 على التفوق وصنع المصير - أى يعرف نفسه، وسيختار المصير  
 الإنسان لهذا الغرض لسانه المعبر، وابنه البار "سقراط".

هذا الذى سأل أباه فى صباه عن سر المهارة التى يحرك  
 بها "أزميله" فى الحجر الصلب، فينحت منه أسدا كأنه حى  
 يتمجر حياة، فأجابته أبوه :

- إلى أرى الأسد كامنا فى الحجر، أشعر كما لو كان  
 رابضا هناك تحت سطحه، وما أفعل إلا أن أطلق بحركة الأرميل  
 سراحه" ..

والذى سأل أمه وكانت "قابله" عن سر مهارتها فى إيلاد

النساء فأجابته

"إلى في الحق لأصنع شيئا سوى أن أساعد الطفل الرابض في الرحم على الانطلاق".

إن الحق الذي استوعب هاتين الإجابتين وحركهما استعداداه اعظيم، خير من يستطيع أن يعلى صرح المعرفة على أساس وطيد من حرية الضمير.. وسمضى على مسح أيوبه مكرسا حياته لمساعدة الأفكار والحقائق والفصائل على الانطلاق.

والحق أن هذا الرجل بشعاره هذا "اعرف نفسك" سيكون المؤذن الصادح لعصر العقل والإنسان.. هذا العصر الذي سيحيى بعد ذلك بمئات الأعوام، والذي سيكون ثمرة حشد من الأنداد والرواد؛ ومع هذا سيظل مدينا سقراط بالشئ الكثير.

إن الضمير الإنساني يريد من الناس أن يقدسوا الحقيقة ويجعلوا البحث عنها كالعبادة.

ولقد كثرت الفلسفات والحكم. وتاهت الحقيقة في الرحام.

من يجيئ بها من ذلك العمار؟

إنه العقل الإنساني إذا أحسن استعماله

فليعلمنا سقراط كيف نستعمل عقولنا..

إنما تعلمت الحقيقة منا في رحام المترادفات، والكلمات التي  
بوعد بينها وبين دلالاتها.. فإد عادت إلى الأسماء مسمياتها،  
وإلى الكلمات دلالاتها، فإن لحق يصبح بين أيدينا.  
حين يدعو الضمير إلى الخير، والعدل، والحب، والجمال،  
والصدق، والعفة.

وحين ينهى عن الكذب، والجبن، والشر، والظلم، فمما إذا  
يعني الضمير تماما بهذه الأخلاقيات...<sup>٢</sup>  
إن تحديد الفكرة - لفظا ودلالة، هو وحده الذي يساعدنا  
على أن نعرف .

وسقراط يأخذ على عاتقه مسئولية هذه المحاولة النبيلة  
عندما تنفرج شفتا متحدث عن كلمة مثل "أحسن" أو  
"قبيح" فيجب أن تنطلق الكلمة كالرصاصة المقذوفة في حندق  
نحو معناها الأوحده حتى لا نصطرب المفاهيم وتلعثم الكلمات..  
- "حين قلت يا إريستون إنك سوف تخلف وطن آبائك  
أحسن مما وجدته، حسيت أنني أدركت معناها كل الإدراك..  
إريستون - وهل وجدت صعوبة في هذا ياسقراط...؟  
سقراط - أجل، فماذا تعني بكلمة 'أحسن' يا إريستون؟

- "الأمر هين ياسقراط، فحين أقول أنني سأترك أثينا  
 "أحسن" مما هي، فأنا أعني أنني سأتركها "أكبر" مما هي.  
 - دعنا إذن نفكر قليلا بإريستون، فأنت لاشك تعسرف  
 "كليبرنيمس" و"أفاجون" الذي واز في الأولمبياد - فأيهما  
 "أكبر"؟

- كليبرنيمس طبعاً ياسقراط  
 - وأيهما في الرياضة "أحسن"؟..  
 - أفاجون  
 إذن يا إريستون فـ "الأحسن" ليس هو "الأكبر" .. ويعود  
 - إريستون فيقول :  
 - لا تتواخذي هكذا بحرفية القول ياسقراط، وإنما أعني  
 الأحسن هنا، أنني سأعمل حتى أترك أثينا أكثر قدرة على أن  
 تفعل ما تريد لنفسها ومصيرها ...  
 ويبدو سقراط، وكأنه يعتذر:  
 ها.. فهمت الآن يا إريستون، ودعنا نحص هذه أيضاً  
 "أيهما أفضل . الشجاع، أم الجبان؟..  
 - الشجاع ياسقراط  
 - وأين ممتاز الشجاع من الجبان؟..

- في ساحة القتال طبعاً .

- ولكن يا إريستون أليس في ساحة القتال أشياء أخرى غير الصمود يستطيع الجندي فعلها - مثل أن يلقى سلاحه ويهرب...؟

- أجل ياسقراط، ولكن الجبان وحده هو الذي يصنع هذا. حقاً يا إريستون - الجبان وحده هو الذي يستطيع أن يختار بين الصمود والهروب - أما الشجاع فلا يملك في المعركة إلا أداء عمل واحد، هو تنفيذ أمر قائده ..

"والآن، انظر يا إريستون. .. إذا كان "الأحسن" في رأيك هو القدرة على فعل ما نشاء، ألا يكون الجبان مثلما هذا "أحسن" من الشجاع لأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء وهو الهارب...؟؟؟

"إن القدرة على أن يفعل المرء ما يشاء ليست هي "الأحسن" فلنبحث إذن عن معيار آخر للأحسن يا إريستون" ..

هكذا، وعلى هذا النسق الباهر كان "سقراط" يمعن ويغوص وراء الدلالات الخاصة.. وما كان ذلك منه سفسطة أو لغواء، فالسفسطة مجرد تلاعب بأحوار لا هدف له .

أما سقراط فكان يرى أن في كل كلمة جزءاً من الحقيقة، إذا عاوناه على الإطلاق، كون مع الأجزاء الأخرى حقيقة كاملة.



هذا بدء المعرفة - الكلمات الواضحة المستقيمة .  
 " - لأن الكلمات الكاذبة ليست مشافرة في دائما فحسب -  
 يا إفريصون - إنما هي أيضا تبعث الشر في نفوسنا".  
 وهذه العبارة الأخيرة تكشف عن أعراض المعرفة التي  
 يريد بها الضمير الإنساني، فهو لا يريد المعرفة لتكديسها، بل ليصل  
 الجنس البشري بسببها إلى الخير العام .  
 إن اكتشاف "الخير" وامتلاكه هما اسمى تبعات الإنسان.  
 وقد تكون كلمة "الخير" قد فقدت في ترجمة القول  
 والاستعمال بعض قيمتها وحقيقتها - بيد أن "الخير" في جوهره  
 سيظل دائما الحياة في جوهرها ..  
 وإذن فربط المعرفة بالخير، من أروع هتافات الضمير.  
 ذلك أن المعرفة بلا ضمير، قد تكون أقرب الطرق إلى  
 الكارثة... أما المعرفة انابضة بحب الخير وإرادته فتلك هي  
 السبيل الأمثل للإنسان .  
 وما دام الإنسان هو الذي يمسك بالدفة في يمينه وعليه أن  
 يؤثر لمسالك المستقيمة حتى لا يهت من مرمأه وأمه ..  
 وسبيل ذلك أن يعرف إرادة الصمود الكامنة فيه. ويشد  
 رابدها إلى أقصاه ..

وهنا يقدم الصمير ندائه الآخر.

"أعرف نفسيك"

- "إن الطبيب يعرف ما ينفع العين، ومدرّب الجياد يعرف

ما ينفع الخيل ولكن من منا يعرف ما ينفع الروح؟.. هذا هو السؤال الحق.."

هكذا قال سقراط:

- من ما يعرف ما ينفع الروح؟.. هذا هو السؤال الحق .

ولسوف يجيب "سقراط" على قدر جهده.. وسيتحدث

طويلا عما يريد الإله من الناس . وعن الروح وعلاقتها  
ومعراج سموها .

وعلى الرغم مما سيخلقه من ضياء ومعرفة، فإن الضمير

الإنساني لا يبلغ في سقراط أوج أمره إلا حين يقرر أن يجعل من

حتم حياته درسا - أى درس - في أن المعرفة لا تجد نفسها إلا في

الشجاعة العادلة والفاتقة .

- "لو قُلتُم لي إنني سنطلق سراحك في هذه المرة يا سقراط،

شريطة أن تكف عن البحث والتفكير لأجبتكم قائلا: أيها

الأثينيون، لي أحبكم وأمجّدكم، ولكنني أطيع الله أكثر مما  
أطيعكم.

"من أجل هدا، لن أمسك عن البحث والتفكير ما دمت حيا".

"وسأظل أسأل كل من ألقاه مالى أراك يا صاحبي تعنى  
بجمع المال وإحراز الجاه والشهرة، ولا تنشده من الحكمة والحق  
وتهذيب النفس إلا أقلها، ألا ينجلك هذا...؟  
"لقد حكمتكم بموتي، ألمس كذلك ؟"

"ألا به إذا كان الموت سينقلني إلى حياة أخرى ألتقي فيها  
بسائر أبناء الله الذين سبقونا إلى هناك، والذين عمروا حياضهم  
بالمعرفة والفصيلة؛ فدروني أمت مرة ومرة، ودعوني أبتسم  
للموت وأهمل.. فلست أرتاب أبدا في أن الموت مع الحرية خير  
وأبقى.."

\*\*\*

وموت سقراط

ويبلغ "الضمير الإنساني" بموت ابنه البار هدا، أوح الولاء  
للحق والخير.

وبهذا الموت تتم "اللوحة" .. تتم "القدوة" التي سواها بارتها  
في أحسن تقويم، ويرفع الضمير للأجيال — جميع الأجيال وثيقة  
من أعظم وثائق الشرف الإنساني.

ويُلَعَّع عصر "الرؤيا" دروته وأوجهه بهذا الموقف السُّقراطيَّ  
اعظيم .



## الفصل الثاني



### في صحبة النبوة



أين كان الأنبياء والمرسلون خلال هذه الحركة، وتلك  
القرن...؟

كانوا هناك لا ريب .

بل لعل الضمير الإنساني في رؤاه التي صادفها التوحيق إبان  
نشأته الأولى لم يكن يُعوّزُه شيءٌ مثلما كان يُعوّزُه ما يحصلُ  
أبياء الله من هُدًى و يقين .

ففي تلك العصور الخولى كان هناك من المرسلين من حملوا  
راية الحقيقة والخير... «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم  
نقصص عليك» .

ولا ريب في أن دورهم في تنمية الضمير كان باهراً  
وعظيماً.

وفي قصة الألوهية بالذات، حيث ارتفعت بين صفوف

ابشرية الأولى المتافات الصادحة بإله واحد لا شريك له، كان مصدر هذه المتافات وهذه الدعوة أفئدة الذين آثرهم الله ليبلعوا كلمته وهُدَّته للناس.

ففى الرمان القديم كان هناك نوح، وإبراهيم، وهود، وصالح .

وكانت دعوتهم المتساوقة والمتحاوررة تُرسل أصداءها فى كل أنحاء هذه المنطقة التى نسميها اليوم بالشرق العربى أو الشرق الأوسط.

وكان جوهر رسالاتهم الإيمان بالله الواحد الأحد، والتوسُّل إليه بالأعمال الصالحات .

كما كان هناك بعد هؤلاء، وقبل الميلاد بقراءة ثلاثة آلاف عام، يوسف وموسى وهارون، يدعون إلى الله الذى لا شريك له. والآن، فإن علينا أن نتابع حركة الضمير فى ظلال النبوة لنرى كيف أفاقت عليه كلمات الله عبر أمداد حياته، وانطلاقاته.

وطبيعى أننا لن نسوِّع فى حديثنا هذا جميع الأنبياء والمرسلين.. إنما سنكتفى منهم — عليهم السلام جميعاً — بنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد يلتقى فيهم، ويجتمع لديهم

كل ما تفرَّق في إخوانهم المرسلين .

فإذا بدأنا بـ "نوح" عليه سلام الله، فلنبداً بما تَعَيَّه قصته من تفاؤل عظيم بمستقبل الإنسان وإعلان سيادته على كوكبه .  
فبعد كارثة الطوفان الماحقة، لا يخرج الصمير الإنساني منها فاقداً الرجاء محني الجبهة، بل يتلقى من فوره هذه البشري السقي يحدثنا عنها فيما بعد "سفر التكوين" .

ـ "وَبَارِكْ اللَّهُ نوحًا وَبَنِيه، وَقَالَ لَهُمْ، ائْمُرُوا، وَأَكْثُرُوا  
وَامْلَأُوا الْأَرْضَ. وَلَتَكُنْ خَشْيَتُكُمْ وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ  
الْأَرْضِ، وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ".

إنه في الوقت الرهيب الذي يُظن فيه أن الحياة قد انتهت،  
يرمض من العيب هذا الضياء المُربَّجِي، كاشفاً عن عظمة الأيسام  
الواعدة المقبلة لهذا الجنس البشري الذي كان يُظن أن الطوفان  
قد أذاع نعيه وطوى أيامه .

وفي ذلك الحين كذلك، يتلقى الصمير وصية الله بالإنسان  
وتمجيده، ياه .

ـ "سَافِكُ دَمِ الْإِنْسَانِ، بِالْإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ، لِأَنَّ اللَّهَ عَلَى  
صُورَتِهِ عَمِلَ الْإِنْسَانُ".

هنا دعوة إلى حق الله في التقديس والإجلال



وحق الإنسان، وحق الحياة أياً، ولكن من غير أن تذيب  
 التحوم الفاصلة بين الله والإنسان، ومن غير أن يصير الإنسان هو  
 الله.. "لأن الله على صورته عمل الإنسان"..  
 فمهما يكن من شأن الإنسان إذن هذا الذي على صورة  
 الله سرى وخلق، فإنه لن يتعد كثيراً عن حقيقة أنه مخلوق لله  
 ولسوف يركز "نوح" على هذا الاتجاه فينادي قومه قائلًا،  
 ومتساقلاً:

﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً﴾ ٢٠٠

﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ ..

﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً، وجعل القمر  
 فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً﴾ ٢٠١

ومع "نوح" عليه السلام، يشهد لصمير الإنسان إحدى  
 معاركه الشاهقة لتحرير الإنسان من أوهام الوثنية والشرك وإهاء  
 تكبيل الرؤى البشرية بالأدياب الملتوية لتلك الأصنام المنحوتة من  
 حجارة، والساجية على الأرض في عجز وبلاهة..

﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾.

﴿يا قوم إن لكم نذير مبين﴾

﴿أن اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون﴾

ومن "نوح" يتعلم الصمير الشجاعة في الحق .  
 ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْ كَبِيرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ،  
 فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ .  
 واختبار الحق في نحرْد وتبثُّ وذمَّة، ثم الدعوة إليه ورفع  
 رايته دون أن يكون ثمت أى مطمع، أو غرض، أمر يحرص  
 الضمير الإنسانى على تنمية موارده . وهامو ذا نوح يلتزم هذا  
 الموقف في صمود وجلال.

﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ، مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ.. إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى  
 اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

.. ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا.. إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.  
 وحرية الضمير اثنى مملكات البشر، وأساس هذه الحرية هو  
 الاقتناع .

﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْنِ مِنْ رَبِّي، وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ  
 رَبِّي فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمُ، أَنْزِلُكُمْ مِمَّا كَانْتُمْ فِيهَا فَتَرَكُومًا ۖ  
 وَالْمَسَاوِي أَمَامَ اللَّهِ، وَأَمَامَ الْقَابُونَ، مَحْتَمَةٌ وَمَقْدَسَةٌ.  
 ومن نوح تلقى الصمير أروع دروسها فحين يحسُّ بغصة  
 قومه يوم القصاص يرسل ابتهالاته الضارعة المُلحَّة.. إلى الله كسى  
 يدع له ابنه، ويغفر له عَصِيَّاتِهِ.

﴿... رَبُّ إِنْ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنْ وَعْدُكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ  
الْحَاكِمِينَ﴾..

﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ.. إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا  
تَسْأَلُنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾..  
﴿قَالَ رَبُّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ لِي مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ  
وَلَا تُغْفِرْ لِي وَتَرْحِمِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾..

وَحِينَ يَسْأَلُهُ قَوْمُهُ أَنْ يُتَّعَدَ عَنْهُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
يَسْأَلُهُمْ. لِمَاذَا يَفْعَلُ ذَلِكَ ؟..

وَهَلْ هُوَ لَا عِبَادَ لِلَّهِ مِثْلًا لَهُمْ عِبَادًا لَهُ ؟..  
﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خِزَانُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ، وَلَا  
أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ..

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ  
أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنِّي إِذْنٌ لِمَنِ الظَّالِمِينَ﴾ .

لَقَدْ انْتَعَشَ الضَّمِيرُ الْإِنْسَانِي وَارْتَوَى بِهَذِهِ التَّعَالِيمِ،  
وَتَلَقَّى مِنَ اللَّهِ مَعَ نَبِيِّهِ نُوحٍ كَلِمَاتٍ أَضَاءَتْ طَرِيقَهُ وَزَكَّتْ  
رُشْدَهُ ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾.

\*\*\*

وَيَجِيءُ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ "إِبْرَاهِيمَ" وَيَقْطَعُ الضَّمِيرُ مَعَهُ هَجْرَةً مِنْ

أعظم هجراته ..

إن عقول الناس في "بابل" قد شوّعت رؤى الضمير؛ فعلى الرغم من إيمانهم بالآلوهة، ذهبوا يتصورونها في أشكال وأرثان.

وانهم ليتحدون من قوى الطبيعة آلهة . هناك "الآلهة السبعة الذين يقررون المصائر" .. وعلى رأسهم الآلهة "أنو، ومردوك، وإنليل" ..

وما دام الناس يَسْتَمِرُّون الخرافة على هذا النحو، فإن رُشدَهم يعضى متعترأً وبطيئاً .

والإيمان بالله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، تحرير أى تحرير لكل قوى الضمير والفكر.

ومع إبراهيم عليه السلام، يكتب الضمير الإنسان رُشدًا جديدًا ..

فالإيمان بالله الحق سيكشف له إبراهيم نهجًا جديدًا.. هو النظر، والتفكير، والاستدلال..

فإذا كان قومه يعبدون الكواكب والسحوم فليظن إن كان ذلك حقاً ؟..

ويتابع حركة الكواكب طويلاً، ويخضعها لتأملاته الذكية.

فلأبصر فيها جلال الألوهة، واقتدارها، وينتسهي إلى أن هذه القوى التي تعتررها تعبرات الحدوث والنشوء ولتطور والعدم، لا يمكن أن تكون هي، الله رب العالمين.. وإنما الله هو خالقها ومأنح كل شيء وجوده وصموده .

ومن ثم مضى يهزأ بالأوثان التي ملأت مدن بابل وقراها.  
بل وبيوتها . سائلا الناس .

هو ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ ..؟

ثم صالحا فيهم

﴿..ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن، وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾.

ثم يهاجر يأمده إلى أرض جديدة يستودعها غراس الحقيقة التي رآها وآمن بها .

وتسير معه أيما سار، دعوته إلى الله الواحد — رب العالمين — وتسير معه كذلك "كرامة الإنسان" ..

لطالما كان الإنسان في تلك العصور والبقاع تغشاه غواشي اليأس والعجز والشك في قدرته على بلوغ الكمال.

وكان "صفقة" يعقد المجتمع عليها مع آلهته سلامة حياته ومصيره. فيقدم من البشر قرابين وذبائح. وسيشهد الضمير

الإنسان مع نبي الله إبراهيم مشهد الوداع لكل هذا..

إن الإنسان شيء عظيم وعظيم.

\*\*\*

- "ظهر الرب لإبراهيم، إبراهيم" وقال له: أيا الله القدير، سرُّ

أمامي وكن كاملاً" ..

هكذا يحدثنا سفر التكوين .

فالإنسان الجديد ن ظل ربه الحق، ترفعه مسئولياته ومكانته

إلى مستوى الكمال الفريد .

"سرُّ أمامي وكن كاملاً" ..!!

ومن ذلك اليوم لن يقدم الإنسان دبيعة وقرباًنا.

وستبطل إلى الأبد عادة اختيار الذبائح والقرايين من بين

صفوف الناس والبشر.

ولكى يكون إعلاناً نهائياً وحاسماً فسيتم ذلك في مشهد

حافل ومثير، يعلن الله في نهايته تحرير رقاب البشر جميعاً من

تلك العادة .

مع سفر التكوين مرة أخرى :

- "ثم مدَّ إبراهيم يده، وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه

ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم.. إبراهيم ..

"فقال: هاإذا ..

"فقال: لاتمد يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئاً؛ لأنى الآن علمت أنك تحائف الله، فلم تُمسك ابنك وحيدك عني .  
 "فرفع إبراهيم عينيه، ونظر، كبشاً وراءه ممسكاً في الغابسة بقرنيه .

"فذهب إبراهيم، وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه  
 ومع القرآن في نفس المشهد .  
 ﴿فَمَا أَسْلَمَا ، وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ..﴾

ونادينا أن يا إبراهيم..  
 قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك بحزى المحسنين  
 في هذا هو البلاء المبين ..  
 وعديناه بذبح عظيم ..  
 وتركنا عليه في الآخرين ..  
 سلام على إبراهيم ..﴾

\*\*\*

وتنقل الراية من يمين إلى يمين، حتى يحملها بي الله موسى  
 عليه السلام .

- وهذا يشهد الضمير الإنساني استمراراً مُلِحاً لنفس المحاولة

العظمى... محاولة الإجهاز على الوثنيات التي تحتجز عمو الضمير والفكر وكل قوى الإنسان .

ويرتفع أعتاف الحق بالله الواحد الذي ليس كمثله شيء .  
إن الناس لا يزالون يريدون أن يعرفوا الله عن طريق  
صورتته .. وهويته...!!!

ومعنى هذا أن الوثنية لا تزال تجلبهم إليها في قوة ونشيط .  
ألم يتحدث إليهم مُرسلون كثيرون عبر القرون، بأن الله  
مخالف كل شيء؛ وليس كمثله شيء... فما بالهم يسبون  
ولا يذكرون .

على أية حال، فلْيأخذ نبي جديد دوره في بحال التبصير  
والتذكير.

\*\*\*

ـ "فقال موسى لله: ها أنا آتى إلى بني إسرائيل، وأقول لهم:  
إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي: ما اسمه، فماذا أقول  
لهم...؟

"نقال الله لموسى: أهية الذي أهية .. أى - هو الذي هو..  
"قال الله أيضاً لموسى: تقول لبني إسرائيل -هُوَ إله  
آبائكم... إله إبراهيم وإله إسحاق، وإله يعقوب أرسلني إليكم".



هكذا يحدثنا سفر الخروج هذا الحديث الذي يُصور زجر موسى لقومه عن أن يسترسلوا مع تلك الاستعسارات المتطرفة التي تنتهي بأصحابها عبادة إلى السؤال عن نسب الله وعائلته.!!

سبحانه عن ذلك وتعانى.

نقد أن لقضية التوحيد والتثنية أن تستقر في وعى البشرية على صورتها الصحيحة، ليتفرغ الناس لرعاية الحياة في ظل رهم الحق وفي رعايته .

ولقد آن لكل صور الوثنية أن تحتفى وتزول .

• - "لايكس لك آلهة أخرى أمامي ..

• "لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما، مما في السماء

من فوق، وما في الأرض من تحت".

هكذا يعلم الله نبيه موسى، كما يحدثنا سفر الخروج أيضا ويعلمه كذلك .

• - "لا تلتفتوا إلى الأوثان ..

• "وآلهة مسبوكة ، لا تصنعوا لأنفسكم ..

• "أنا الرب إلهكم.."

\*\*\*

وبقد سهر موسى على تنفيذ هذه التعاليم في نقطة صارمة.  
وحين عاب عن قرمه ثم عاد ليحدهم قد اتخذوا لهم صنماً  
عجلاً من ذهب له خوار، خفي وطيس عضبه، وحطّم الوثن ثم  
قذف به إلى جوف نار متسعة - ثم سحقه ودراه ففى الهواء في  
حنق ماحق .

ومع دعم الإيمان بالله وحده، شهد الضمير الإنساني موكب  
الوصايا وعاش بها ومعها طويلاً.

.. "لقاط حصيدك لا تلتقط، للمسكين والغريب تتركه..

"لا تسرقوا ..

"ولا تكذبوا..

"ولا تعذبوا.

"لا تبت أجرة أجير عندك إلى العد ..

"لا تشتم الأصم وقدام الأعمى لا تجعل معثرة.

"لا تتركبوا جوراً في القضاء.

"لا تأخذ بوجه مسكين، ولا تحترم وجه كبير..

"لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنا، لئلا تزن الأرض وتتلصق

الأرض رذيلة .

"وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه..

كالوطى منكم يكون لكم العريب المازل عندكم، وتحببه  
كنفسك" ..

إن هذه الإنسانية والأخلاقيات لم تكن في مفاهيمها  
الواسعة سوى دعم للمسئوليات التي يفرضها الإيمان بالله.  
فليس إيمان الناس برهم نعمة يُسدونها إلى الله.  
إنما هو معرج لحياتهم هم، يقودها ويأخذ بها إلى آفاق  
لهدى والخير والفلاح.. أما الله سبحانه فغنى عن العالمين .  
يقول القرآن الكريم :

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً، فإن  
الله غنى حميد﴾

\*\*\*

ويلقى موسى ربه ..  
ويستأنف الصمير مسيره المبارك حاملاً ثرائه المذخور،  
وتجربته النامية منذ القدم وعبر القرون ومُذيعاً بهذا كله، في كل  
مكان وبكل لسان .

والإنسانيات التي طالما صدح الصمير بها ودعا إليها  
ملتقى بها في سفر الأمثال من جديد .

.. "أثق على الرب أعمالك ، فتثبت أفكارك" ..

"البطيء الغضب خير من الجبار، ومالك روجه خير ممن  
يأخذ مدينة"!!..

"لقمة يابسة ومعها سلامة، خير من بيت ملآن ذبائح مع  
حصام".

"المستهزئ بالفقير، يُعيرُ خالقه".

"أفكار الصديقين عدل، تداير الأشرار غش".

"لا تحسد الظالم، ولا تختبر شيئاً من طرقه"

"إن جاع عدوك، فأطعمه عجزاً،

وإن عطش، فاسقه ماءً"..

ومضى السّنون، وتواكب الأجيال، وينسى الناس

كعاداتهم ما ذكروا به ودُعوا إليه..

يبد أن الضمير مشرف في بقعة على أبراج الحراسة.. ساهر

على حماية المبادئ التي رُكسَ لإيمانها .

والآن، فإن صوتاً صادقاً اللهجة، عالي الرنين سوف ينطلق

من فؤاد نبي عظيم هو "إشعيا" عليه السلام .

وفي ثورية عادة سينهض الضمير الإنساني مع هذا النبي

ليجعلاً من العدالة الاجتماعية قوة فاصلة، ومن طلبها ثورة

عادلة..

ولما كان رجل الدين يومذاك يحسكون بأيديهم الكثير من  
سطة التوجيه .

ولما كان أكثرهم، وأكثر الناس معهم، قد صرفوا الدين عن  
جوهره وتخلوه تجارة واستعلاء، فلا بد حساب الضمير الإنساني  
كله أن يواجه هذا الزيف. عنطق صارم يجعل  
عليأت إذن "إشيعا" .. وليواجه أولئك الذين يُمتعون في  
عسل أيديهم، ويجعلون من قلوبهم محازن للخديعة والصلال  
وكل مُوبقة ومكيدة ...!!

ليواجه أولئك الذين يتقربون إلى الله بديح حروف .. بينما  
هم يسحقون الناس، أبناءه وخلقهم .  
وليواجه تلك الطبقة البغيضة التي جمعت قلة مُنحمة ها ..  
وكثرة ساعجة هناك .

فلنصغ لـ "سيفر أشعيا" ..  
.. "لا تعودوا تأتون بتقديم باطلة"  
إسها بداية موفقة يريد بها أن يعيد الدين إلى جوهره  
الحق ويتزع النفوس المخذوعة بالشكليات عن الجوهر والنباب  
"البخور" .. هو مكرهه لي ..  
"رأس الشهر! والسبت، وبداء الحمل . ؟ لست أطيق الإنم

والاعتكاف ..

"رعوس شهرركم وأعبادكم بعصتها نفسى ..

صارت على ثقلا ..

"فلت حملها .

"فحين يبسطون أيديكم ، أمثر عيني عنكم .

"وإن كثرت الصلاة، لا اسمع ..

"أيديكم ملآنة دما" ..!!

ترى ماذا يريد "أشيعا" إذن ..؟؟

يريد الحقيقة . يريد الجوهر ..

"اغتسلوا .. تنقوا .

"اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني ..

"كفوا عن فعل الشر ..

"تعلموا فعل الخير ..

"اطلبوا الحق ..

"انصموا المظلوم ..

"اقصروا لليتيم ..

"حاضروا عن الأرملة" ..!!

هذه هي البدايات فيما يريد . أو بالأحرى فيما يريد الله،

وَيُبلِّغه إشعياً .

• العدل ابذى يجعل الناس سراسية آمين .

- ويل للذين يقصون أقضية الباطل.. وللكتبة الذين  
يسجلون جوراً ، يصدروا الصعفاء عن الحكم، ويسلبوا حق  
بائسى شعبي؛ تتكون الأرامس غيبتهم ، وينهوا الأيتام .  
- "ومادا يفعلون يوم العقاب، حين تأتي التهلكة من بعيد"

\*\*\*

• - والحرية التي تمح كل مسنى عتقا، وكل أسير مُتطيقا..

ما هو د. ينادى بها فيقول :-

- روح السيد الرب على ..

لأن الرب مسحي ؛ لأبشر المساكين ..

"أرسلني لأعصب مكسرى القلب ..

لأنادي للمسيير بالعتق، وللسأسورين بالانطلاق "

• - والمحبة، التي تُخنى الكراهية والحروب عن مكاسها في

حياة الناس وتملأ الأرض سلاماً وأمناً .

ب. رؤيا "إشعيا" عن المحبة تبقى في صورة بُشرى بالخلاص..

لا مجرد دعوة لـحب والسلام، تحيى وعداً أكيداً بقدمها وقُدوم

مُنعمٍ يرمع رأيتها .

.. " يقضى بالعدل للمساكين ..  
 " ويحكم بالإنصاف لياكسى الأرض ".  
 وعندئذ.. ولذى إهلال تلك الأيام المنتظرة  
 .. " يسكن الذئب مع الخروف ..  
 " ويربض النمر مع الجدى .."  
 وأما الناس، والدول، والشعوب  
 .. " فيطيعون سيوفهم سيككا ورماحهم مناجل .  
 لا ترفع أمة على أمة سيفاً ..  
 " ولا يعلمون الحرب فيما بعد .. 111  
 لقد عبّر نبي الله "إشعيا" بهذه الكلمات والآيات عن أسمى  
 أغراض الوجود الإنسان .  
 وسيظل "المخلصون" يجمعون واحداً بعد آخر لإنجاز هذه  
 المهمة الجليلة .  
 وسيبقى الضمير الإنساني يرتاد طريق ذلك المستقبل في  
 تفاؤل عظيم وإصرار أعظم، مُلقياً في روع أفراد الجنس البشري  
 جميعاً حثية إنجاز هذه المهمة المقدسة .

\*\*\*

وتمضى الأيام بنادى بعضها بعضاً.. وتعاليم الهدى والخسر



تكافح في سبيل استمرارها.

وكالعادة دائما، تبدأ هذه التعاليم في مقاومة حصرها والكافرين بها، ثم لا تلبث إلا قليلا حتى تجد نفسها تخوض المعركة مع أتباعها وفويها 11..

و حين نتجه الآن لنلتقي بالسيد المسيح، تواجهنا هذه الظاهرة .

فالذين ارتفعت بين صفوفهم من قريب دعوة المرسلين من قبل ياله واحد للعالمين، لم يلبثوا حتى حولوا إيمانهم بالله إلى إله محلي قومي .

والذين كان ينبغي أن يكونوا رُحماء ودُعاء، راحوا يسرفون في القتل إسرافاً شديداً حتى نعتوه عن سوء فهم بأسمه "زكاة للرب" .

والذين كان ينبغي أن يحتفظوا للدين بجوهره ولُبابه وألا يُحرّفوا الحق عن مواضعه، لم يلتزموا هذا الواجب ولم يَفُوا بذلك العهد.

هذا من جانب ..

ومن جانب آخر، كانت هناك "روما" الامبراطورية التي رغم ما كانت تُسديه للتقدم الإنساني من خير، فإنها كانت

تُدِلُّ الشعوب المستعمرة لها إذلالاً وبيلا.

كانت تُصنَّر إليها عبادة قيصر.. وتستورد منها ما لديها

من ثروته ورزق !!..

وكانت القسوة الظالمة طابع علاقات الحاكم بالمحكوم،

والقوى بالضعيف .

وكانت عقوبة الصُّلب إجراءً هيناً يشبه في أيامنا هذه

"لَفَتَ نظر" أو غرامة "بضعة قروش" ..

وكانت محاولات العبيد الثورية في روما لتحطيم أغلالهم،

ومحاولات الشعوب المستعمرة خارج روما لنيل حريتها - هذه

وتلك تُقمع بوحشية لانظير لها سواها.

ولم يأس الضمير الإنساني، ولم يدع الراية تُسقطها من

يمينه تلك الأحاصير. بل واصلَ نضاله ضد المحرفين والمخربين

والفساة:

وفيما هو يتاضل ويقاوم، جاءه من الله ظهير-

• - "طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض.

"طوبى للحياء والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون

"طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون..

"طوبى للأتقياء القلب، لأنهم يعاينون الله..

"طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله ويُدْعَوْنَ -". !

إنه السيد المسيح يتحدث

وإنه باسم الله وعلى بركته يأخذ بيد الصمير الإنساني إلى

نهاه وهداه ..

ولكن، أفي مواجهة هذا الظلم، وهذه القسوة يقال للناس:

طوبى للودعاء.. طوبى للرحماء.. طوبى لصانعي السلام ..؟؟!!

أجل، ولا يقال إلا هذا في مثل ذلك المقام .

فالمسيح لم يأت ليحل قضية قومية. أو زمنية، إنما جاء

ليكشف للإنسانية بعض حقائقها الخالدة ثم يمضي ، ومن هذه

الحقائق. أن البشرية منذ نشأتها تقاوم الشر بالشر، والسيف

بالسيف، فعادا صمعت..؟ وإلام انتهت..؟

لا شيء . مشاكلها تتفاقم.. ورصيد الشر ينمو ، وقوى

الكراهية تزيد.

ولقد ارتفعت من قبل أصوات صادقة وأمية تدعو إلى المحبة

والرحمة . ولكي الناس - جمع الناس - أصروا على الثأر، ودفع

الشر بالشر.

وقد يكون ذلك طبيعياً بعض الوقت.. ولكنه لا ينبغي أن

يكون طبيعياً على الدوام .

فما دامت الشريعة تسير إلى كمال مقدور ، فأولى مميزات هذا الكمال، لابد أن تكون نبت الكراهية والقسوة والقتال وهذا ما جاء لتسيح لتبيانته على أوضح نَهج . تبيانته لا كما يقول من كلمات محب.. بل وبالمودج الكامل لسلوكه وحياته .

قد نقول نحن اليوم عن هذا المتهج الفريد إنه تجربة لا بأس بها ..

بيد أنه عند المسيح لم يكن تجربة.. ولذَى الضمير الإنساني لم يكن كذلك أيضاً.

هو شيء أصدق وأعظم.. هو حقيقة وجوهر..

إن المسيح يقول للناس بموقفه ذاك.. إن البشرية ماضية حتماً إلى هذا.. وذاك هو مصيرها وهذا هو شكلها القادم.. إخوان يحبون إخواناً، لا يقاومون الشر بالشر.. بل بالخير.. ولا يزعجون الكراهية بالكراهية.. بل بالحُب، حتى يحتفى الشر وتزول الكراهية

فما دام هذا هو المستقبل المشرق المحتوم، فلماذا لا يتعجل الشر؟ ولماذا لا يبحثون الخطي إليه..؟ فليبدأ المسيح إذن، وهذا هو السبيل :

"سمعتم أنه قيل: عَيْنُ بَعِينٍ، وَسِنٌّ بِسَنٍّ ..  
 "وأما أنا فأقول لكم: لا تُقاوموا الشرَّ ..  
 "بل مَنْ لطمك على خَدِّكَ الأيمن، فحوِّلْ له الآخر أيضاً.  
 "ومن أراد أن يُخاصمَكَ ويأخذ ثوبَكَ، فاترك له الرداء  
 أيضاً..

"وَمَنْ سَحَرَكَ مِيلًا وَاحِدًا. فذهب معه ميلين ..  
 "مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلَا تَرُدَّهُ .  
 "سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتُبعض عدوك.  
 "وأما أنا فأقول لكم. أحبوا أعداءكم ..  
 "باركوا لاعدائكم ..  
 "أحسنوا إلى مُبغضيكم ..

"وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يَسْبِثُونَ إِيَّكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ؛ كَيْسَى  
 تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ؛ فَإِنَّهُ يَشْرِقُ شَمْسُهُ عَلَى  
 الْأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الْآبَرَارِ وَالظَّالِمِينَ".  
 ثرى.. أَيْسْتَطَاعَ هَذَا..؟

.. كيف يحب الإنسان مُبغضه ..  
 .. كيف يُبارك لأَعْنِهِ، ويُحسن إلى شَائِبَةٍ..؟  
 عند المسيح لا يكون السؤال هكذا.. بل يكون.

.. كيف لأُحب الإنسان مُبغضه ؟.

.. كيف لأُبارك لاعدّته ؟..

ذلك أن الإنسان الذي يدعوه المسيح لهذا، هو الإنسان البارّ المتفوق .

فإذا تشابّهت حوافز الأبرار وحوافز الأشرار فأين إذن مزيّة الأبرار ؟.. وإذا كان جهم وودّهم مجرد رد فعل لحب الآخرين إياهم ومودّتهم لهم فأى فضل هم ؟..

.. "لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم! فأى أجر لكم ؟.

"اليس العشّارون أيضاً يفعلون ذلك ؟..

"وإن سلّمتم على إخوانكم فقط، فأى عمل تصنعون ؟

اليس العشّارون أيضاً يفعلون هذا..

"فكونوا أنتم كاملين، كما أن أبائكم الذي في السموات

هو كامل" !!!..

إن وأد نوازع الشر ولتربّص لي هذا المدعى البعيد هو هدية المسيح إلى المصير الإنساني كله .

ولقد بلغ الدرس جلاله الأعظم حين أصرّ المسيح على انتهاك هذا المسلك في أخطر لحظات حياته .

فحين اقتحمت قوى الشر مُضلالاً.. وأوثقه الباغون

وحملوه إلى حيث أرادوا أن يضعوا نهاية لحياته الطاهرة الجليلة.  
ساعتئذ، وحين هوى تلميذ من تلامذته بسيفه على أحد  
الجنود مقتحمين فصلم أذنه، وصاح المسيح في وجهه صيحتسه  
المباركة:

.. "رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ .

"لأن الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون"...

\*\*\*

قلنا: أن دور المسيح كان متمثلاً في أن يعلن هذه الحقيقة  
الخالدة حقيقة أن المحبة أقوى وأبقى وأن مقاومة الشر بالخسوف  
ليست ممكنة فحسب، بل ومحتومة الطفر والسحاح أيضاً.  
وقلنا إن دوره في هذا لن يكون مجرد ترداد هذه الحقيقة  
بكلماته.. بل وصوغ نموذج لما في حياته .

وهكذا ثابر عليها حتى لقي ربه .

فماذا حدث بعد وحيه عن دنيا الناس...؟؟

إن كهنة "أورشليم" بكل مكرهم وغدرهم..

وإن سلطان روما في "أورشليم" بكل عتاده وعناده..

بل إن أباطرة روما جميعاً - والامبراطورية الرومانية كلها،

قد صاروا وصارت تراباً، ونسياناً، وبُذْداً

أما المسيح.. أما إنجيله.. أما مملكته.. ومعدرة إليه عرس  
هذا التعبير.. فلتنظر.. أى دُيوع؟ وأى مجد؟ وأى سلطان، منذ  
رحل عن الأرض حتى اليوم..!!

صحيح أن البشرية لم تستطع مع دعوته إلى الحب صبرا..  
وصحيح أن الكنيسة نفسها، قد حملت فيما بعد كل أنوية  
الكراهية والقسوة والبصش، وصيد مسيحيين من بني جلدتها.  
وصحيح أن ما أحررته المسيحية من مجد ونفوذ وسلطان لم  
يكن ما يريده المسيح..

كل هذا حق.. ولكن كل هذا لا يطمس درة من الوجوه  
الآخر للحق وهو أن المحبة كحقيقة ظافرة قد بلغت في المسيح  
مقتهى الوضوح والصدق.

ف"ابن الإنسان" الذى عاش بالحب، وللحب.. هذا  
الأعزل من كل سلاح.. الفقير من كل مال.. النابذ لكل جاء أو  
سلطة يكتب له ولدعوته من الخلود ما لم يظفر بمعشر معشاه  
كل من حملت الأرض من أباطرة وملوك وسادة وأثرياء..  
إن المحبة إذن قادرة على صبح المعجزات التى ليست كمثلها  
معجزات.

وإن مقاومة اشر بالخير، والسيف بالسكينة، والكراهية



بالحب ..

إن ذلك كله. وإن لم يحتم صاحبه أحياناً من الضر في حياة الناس القصيرة، فإنه دائماً وأبداً، وحتماً يمح حياته ودعوته مخلوداً لا يطاوله نحود، ويستبقى منه للبشرية بعد رحيله عنها كل نفعه وعبره وهداه ..

ولقد مضى المسيح في دعم السلام الاجتماعي بمطقة العذب وإقناعه الوديع، غير تارك وسيلة تحييه وتشدد أرره إلا أوصى بها وجعلها شعيرة وعبادة .

ـ "قد سمعتم أنه قيل للقديماء لا تقتل ومن قُتل يكون مستوجب الحكم ..

"أما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم."

ثم يمح إمعانه النبيل في دعم هذا السلام وهذا الإخاء فيقول :

ـ "فإن قدمت قربانك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح، واذهب أولاً، واصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك".  
وبسأله تلميذه الأول "بطرس".

ـ "كم مرة يخطئ إلى أخى، وأنا أغفر له..؟"

"هل إلى سبع مرات ..؟"

ـ قال له يسوع :

"لا أقول لك إلى سبع مرات.. بل إلى سبعين مرة" .. !

وإذ كانت الأنانية، والطمع، واحتكار أسباب الرزق، من شر ما يُمزق وشائج السلام والإخاء والمحبة، فقد قاومها المسيح وسفّها جميعاً، ونادى بأن علاقة الناس بالمال يجب أن يكون أساسها القناعة لا الشر..

• ـ "لا تكنزوا كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصُّدأ، وحيث ينقب السارقون، ويسرقون.."

• ـ "لا يقدر أحد أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يغيض الواحد ويحب الآخر.. أو يُلْزام الواحد ويحقر الآخر.. لا تقدر أن تخدموا الله والمال"

وحين يُسأل يوماً عن طريق البر والكمال، يجيب سائله:  
"إن أردت أن تكون كاملاً، فادهب بربع أملاكك، وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعنى.."  
وإذا كان عياب التسامح، يعنى الشطط وتوتر العلاقات الإنسانية، فقد وقف "المسيح" يشيد بالتسامح وتقدير الظروف

الإنسانية تقديراً يُفِيء الحسان والتعاطف.

• - "لا تدينوا لكي لاتدانوا . لأنكم بالدينونة التي بها تدينون، قدانون.."

"وبالكيل الذي به تكيلون، يُكَالُ لكم"

ومن ثم كانت طريقته في مقاومة الخطيئة ملائمة تماماً لإيمانه بالهبة وبالرحمة ..

"إني أريد رحمة، لا دية، لأن لم آت لأدعوا أبراراً للتوبة بل خطّائين" ...!!

وإذا كان الخير والشر مُتْرَافِلَيْنِ في الحياة الإنسانية تزاملاً السَّالِب والموجب؛ فإن أزكى السَّبِيل لإرْباء جانب الخير هي الدعوة الحانية إليه والأخذ بيد الخطاة في مشاركة عاطفة.

والله ربه، ودودٌ ورحيم.. قلماً تحدث المسيح عنه سبحانه كمتقم وعضوب.. وطالما تحدث عنه كأب حان ورحيم.

• - "اسألوا تعطروا.. اطلبوا تجدوا.. اقرعوا يفتح لكم؛ لأن كل من يسأل يأخذ.. ومن يطلب يجد.. ومن يقرع يفتح له.."

• - "أم أي إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه خبزاً؟"

وإن سأله سمكة يعطيه حية..؟

"فإن كنتم وأنتم أشرار، تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا  
جيدة، فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات، يهب خيرات  
للذين يسألونه"!!..

رؤية مُشرِّقه لرب عظيم !!..  
هذا الربُّ الأحَد الذى دعا المسيح لعبادته وحده فقال!  
".. مكتوب للرب إلهك تسجد .."  
"وإياه وحده تعبد ..!!"

\*\*\*

هذا هو الحب العظيم، الذى حمل أماته، وأجز تبعاته "ابن  
الإنسان" يسوع !!..

وما أعذب الحب وما أجته حين يكون نموذج المسيح..  
لقد كان الحب دينه ووصيته وحياته .  
ولقد سأله سائل .

-"يا معلم.. أية وصية هى العظمى فى التاموس..؟"  
"نقال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومس  
كل فكرك، ومن كل نفسك ..

"هذه هى الوصية الأولى والعظمى ..

"والثانية مثلها، تحب قريبك كنفسك"

وكلمة "قريب" حين ينطلقها المسيح، يتراخى مفهومها حتى  
يشمل الخليقة الخيرة جميعها .

• - "لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو  
أعزى، وأحقى، وأمى" 11..

\*\*\*

وهكذا تلقى الصمير الإنسانى من هذا القلب المحب الدكى  
جرعة شباب طويلة - بل قولوا: خالدة.. وسيظل بها ريثانا  
وضيئا.

كما تلقت الحياة الإنسانية. نفس الجرعة المباركة أيضاً..

\*\*\*

ومضى الأيام فى تتابعها المعهود والصمير الإنسانى يُنسى  
خلال الزمان تراثه.. تراثه الذى أباؤه عليه خيراته ورؤاه..  
والذى تلقاه من أنبياء الله ورسله

ويحوص معركة الدائبة مع قوى الكفر والتردد  
والمراوغة.

وبعد رحيل المسيح، كانت معركة الضمير قاسية،  
فالتحطت الباهرة التى عاشها الضمير مع المسيح فى حبه سعيد،  
ولت حثيئة !!..

واكتشف الضمير أن الحب الذي عاشه المسيح وتحدث عنه كان في غير أوانه.. والطبائع الإنسانية، لا يزال المدى اللازم لترويضها مديداً ويعيداً..

لقد أعطى المسيح البشرية إحدى الحقائق الكبرى، وهي أنه في مستطاع البشر أن يديبوا كل مشاكبتهم في دفء الحب والرحمة.

وسيكون دور الضمير في تلك المرحلة من مسيره أن ينقل إلى الأجيال انطباعات تلك الحقيقة الناجحة التي شهدتها بنفسه وعاشها مع بطونها العظمى.

ولكنه لا يكاد يبدأ حتى تفدح مسكينته الأحداث، فالصفوف التي حملت لواء المسيح، يستشري بينها التحريف والنزاع.. أجل بينها نفسها..!!

إن المثل العليا عادت ولا أثر لها في نفوس أتباعها وفي الحياة، إلا في تلك الأشكال والمظاهر.. في الكساهن والذهب، والاعتسال في دم المسيح..!!

وإلا ذلك النزاع القاتل من الذين فرقوا بينهم وصاروا شيعاً.. لكل فريق مسيحة وثالوته.

والكنيسة البيزنطية تصلى المسيحيين أنفسهم الذين لا يؤمنون

عذبها عذاباً واضطهاداً.

وإعالم يومئذ يقع فريسة لموجات رهبة من إعارات السطو  
والهيب، وتخریب ..

وأكبر إمبراطورياته يومئذ تعاني وتعاني شعوبها  
ومستعمراتها معها الانحطاط، ولدمار .

فإمبراطورية الرومان الشرقية، وإمبراطورية الفرس  
الساسانية، تترحان تحت ضربات ما ضيها الظلوم وحاضرهما  
التفسي .

والعالم كله تقريباً في حالة فقدان تام لكل توازنه السياسي  
والاقتصادي والاجتماعي

أما حياته الروحية، فقد أجذبها قحط مُميت، وتحولت  
القيم الدينية والأخلاقية بين أيدي الحكام والسدنة إلى صفة ..

أما في قلوب الجماهير وعقولها فقد تحولت إلى أسطورة —  
عدا بقية مَن رَجِمَ الله .

وفي هذه المنصقة بالذات، حيث يتعكس عليها فوضى  
بيزنطة وتدهور الفرس ..

في هذه المنطقة كما في سواها وقعت الحياة الإنسانية تحت  
وطأة التخادل والتفكك والضياع .. ولم يعد هناك مثل أعلى

يجمعهم ويردُّهم إلى رُشدِهم الأول .

إنها طاهرة مؤسعة وبحيرة ..

فأين محاولات الضمير في كل تلك الألوف السالمة من

السنين ؟..

أين هتافات المصلحين والفلاسفة والرواد ؟..

وقبل هذا كله . أين التراث الروحي العظيم الذي تخلفه

للبنشيرية كلها الأنبياء والمرسلون ؟..

لقد بدا الأمر - وكأننا أفلتت من يد البنشيرية جميع أرباحها

العظيمة ..

حتى الإيمان بأنه واحد أحد .. هذا الذي توالت مواكسب

الأنبياء هاتفة به .

حتى هذا لإيمان يضيع في لُحج الحقد وزحمة الضلال ..

وإذا كان هذا الجزء من العالم، حيث الإمبراطورية الرومانية

الشرقية، والإمبراطورية الفارسية، وما يدور في فلكيهما من

شعوب وبلاد ..

إذا كان هذا الجزء الكبير من الدنيا، وهو يومذاك الجزء

المتحضر، أو الأكثر حضارة ..

إذا كان قد نهوى تحت ضربات الخلاف والاعمال إلى



هذا المذبح . فما شأن بقية الدنيا إذن . ؟

إذا كانت البقاع التي يتواجد عليها أنبياء الله منذ عدّة آلاف من السنين - قد حُت الإيمان بالله جانباً، ودهيت تحترِبُ في عنف حول طبيعة المسيح - وهل هي واحدة أم متعددة..؟! وذهب بعضها الآخر يعبد أصناماً، وأوثاناً.

وإذا كانت البقاع التي ششهدت ميلاد كل مثل أعلى لا يجد أهلها اليوم مثلاً أعلى واحداً يجمع شتاتهم وبصير أفئدتهم، فما حال ذلك المنحني البعيد من العالم . ؟  
إذا كان الروم الذين ورثوا دين "المسيح" قد انتهوا إلى هذا  
يصير المحزن ..

والفرس الذين جاءهم "زرادشت" قبل الميلاد بستمائة عام وثر ثورته المباركة على الوثنية والمجوسية، وحطم بعزم رشيد الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله.. ودعاهم إلى عبادة الله وحده، إله انور والسماء "أهورا - مزدا" خالق السماوات والأرض، والشموس والكواكب التي كانوا يعبدونها من دون الله.. وباداهم إلى كل فصائل الحياة وزجرهم عن آثامهم ..  
بيد أنه ما كاد ير حل عنهم إلى ربّه حتى حرقوا شريعته، وعبدوا النار وقدّسوها. واتخذت كل أسرة لنفسها موقداً

لا يسطفي ناره قط، يتحققون حولها صارعين مُصلين  
والإمبراطورية التي تأسست يومُ بتعاليم "زرادشت" عبادت  
تشر الطلم والفساد والإثم في كل مكان .  
أليس العالم كله إدن - لا قريش وحدها - في حاجة  
يومذاك إلى بشير وندير ؟؟

ولكن بأية دعوة يحىء هذا البشير ؟؟  
إسها نفس الدهرة اسابقة، والحقيقة الساعة التي هتم  
بها الأنبياء والمصلحون .

فثلث الدعوة لم تكن باطلا حتى يحىء اليوم بسواها .  
وهي لم تُحقق حتى تجىء بأخرى ظافرة .  
إما الناس هم الذين أحفقوا في الأخذ بها والسر وفقها .  
سيجىء رسول جديد إدن ليرد لهذه الدعوات الصادقة  
شبابها

ولأب أيامه المباركة فوق الأرض ستكوب آخر جونة للبسوة  
وللوحى في ديا اساس؛ فإنه في سبيل السمو بالروح، لن يعمل  
بعيداً عن كل مالميس روحياً في طبيعة الإنسان  
لن يبنى "ملكوت الله" في أفئدة الأبرار وحدهم، بل سيقومه  
ويشيده وسط صفوف الجماهير والكافة بكل خيرها وضعفها.

وهو لهذا لن يدع تعابيه وديعة لذى الميول الحيرة والوايا  
الطيبة نداس، بل سيعرسها في أعماق الطبيعة الإنسانية والطبيعة  
الاجتماعية معاً .

وهو لن يتركها حكمة مشورة ، بل سيصوغها في ثلاثهم  
فد، حتى يجعل منها قوانين للروح وللحياة

\* \* \*

وهكذا مضى الضمير الإنساني يبحث عن الرائد الجديد..  
يبحث وسط العالم المتهاوى يبحث وسط الصلح والصياغ..  
وبكن الله كما أبر وأرحم، فقد احتار بذاته البطل.. اختار  
الرسول الذى سيُتم عمل المرسلين .

والراية التى حملها نوح وهود وصالح وشعب .

وحملها إبراهيم وموسى والمسيح ..

الراية التى حملها عشرات، ومئات من أسباء الله والسق  
حققت عالياً بكل آيات الخير واحق والإيمان.

هذه الراية سيحملها المختار محمد... وسيقود تحت لوائها  
دلت العالم الضال المتعطش إلى التوحيد وإلى الإخاء، وإلى العدل  
وإلى الحرية ..

أجل ليهض رسول الإيمان والعزيمة فقد جاء دوره .

ليهنس لكي يُمكن في الأرض آحر كلمات السماء.  
 ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُرْسِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ  
 تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ.. وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

\*\*\*

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

\*\*\*

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ، اللَّهُ الْعَزِيزُ  
 الْحَكِيمُ﴾

\*\*\*

﴿وَإِنْ أَنْتَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ..  
 ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ..  
 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

\*\*\*

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا، فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا، إِنَّ عَذَابَكَ إِلَّا  
 الْبَلاَغُ﴾..

\*\*\*

وقام الرسول ببلع رسالته، ويرد الإلهية في ربها الحق  
 ويفصح أمام صميمها سبل لرشد ومسالك التطور نحو المعرفة

والخير والارتقاء .

مدا أعطى محمد ﷺ الصمير الإنسانى ومادا أضاف إلى  
ثرائه . ٢

إب هذا يتضح من خلال معرفتنا جوهر الرسالة المحمدية  
داتها وما جوهرها ؟

لعلّ هذه آيات انقرآنية تجمع هد الجواهر وتشير إليه  
• ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

• ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

• ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِنَّ اللَّهَ مُرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

• ﴿ أَهْلٌ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

أجل - تلك هي الأسس التي ستهصر عليها كل مبادئ  
الدين وتعاليمه .

١. الله رب العالمين ..

٢. الناس كلهم إخوة ..

٣. الخير، لا الشر ، هو مناط وجودنا، وزادُ مصيرنا

٤. الحياة شروق متجدد ومستمر لرؤى المعرفة والعلم ..

هذه هي الحقائق التي سيرسها محمد عليه الصلاة والسلام

في الصمير الإنسانى ويُحكم غراسها !! ..

- فأما الحقيقة الأولى، وهي وجود الله ووحدانيته؛ فإن  
محمدٌ يعطيها جلالها الحق، ويعطيها صورتها المثلى  
وأي عجب، وقد تلقاه قلبه من بارئه ليكون من المدرسين؟!  
نقد وضع القرآن عقيدة التوحيد والتثنية مكان كل  
محاولات التعدد، والشرك، والثنية..

وبقد أعلن هذا بصورة حاسمة فاصلة ..

- ﴿إِنْ إِلَهُكُمْ لِوَاحِدٌ...﴾

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾

\*\*\*

وهو مبره عن كل ما يتصوره الناس من تشبيه، وتمثيل  
وتجسيد .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

﴿لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ﴾

\*\*\*

وهو مصدر الوجود كله. والخير كله .

﴿كَلَّا نُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ

رَبِّكَ مَخْطُورًا﴾

وهو الذي صمم وحده هذا الكون الهائل، وصممه قوانينه

التي تحركه وتهديه

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ .

\*\*\*

﴿لَدَى خَلْقِ فُسُوءَى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ..

\*\*\*

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

\*\*\*

وهو رب ودود ، وأب شفوق

﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ .

﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ ..

\*\*\*

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ .

\*\*\*

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ..

وهو إلى حوار ذلك أحكم اعددين، فلا يُحاي ولا يجاس

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْةٌ﴾ ..

\*\*\*

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

\*\*\*

﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

\*\*\*

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا.. وَكَفَى بِنَا

حَاسِبِينَ﴾

\*\*\*

وهو حاضر لا يعيب، لا يفتقده زمان، ولا مكان، ولا

مخلوق :

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

\*\*\*

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَحْوِ ثَلَاثَةِ إِلَّا هُوَ رَاحَهُمْ﴾

\*\*\*

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ.. بَلَى.. وَرُسُلُنَا

لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ﴾

\*\*\*

وهو سبحانه رب الجميع، ليس بيه وبين عباده حجاب،



ولا يقف على أبوابه الواسعة كُهان، ولا حُرَّاس، ولا سُدنة  
﴿أأيُّما ثُوِّلُوا قَتَمَ وَجْهَ اللَّهِ﴾..

\*\*\*

﴿وإذا سألت عبادي عني فإني قريب﴾

\*\*\*

وهو ليس إله قريش وحدها، أو العرب وحدهم، أو  
المسلمين وحدهم. ليس إلهًا محليًّا أو قوميًّا. بل هو رب  
العالمين جميعاً

﴿يا بني إسرائيل، اعبدوا الله ربي وربكم﴾

﴿يا أهل الكتاب، لا تعْلُوا في دِينِكُمْ ولا تقولوا على الله إلا  
الحق﴾..

\*\*\*

﴿يا أيُّها الناس، اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾

ليس رب محمد إذن إلا رب الأَقْـوَمِ كُلِّهِمْ، والناس  
أجمعين.. ولا فضل لقوم عند الله على آخرين  
﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾..

وهو إذا أثر نومًا، أو أخذًا بحبه ورصوانه، فليس إلا لما

معهم من خير وصلاح

فهو سبحانه :

﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ..

﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ..

﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ ..

﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ..

﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

وكذلك الشأن فيمن، وفيما لا يُحِبُّ ..

فهو سبحانه :

﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ..

﴿لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ..

﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مَخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ..

﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ..

﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ عَصَوٍّ كَفُورٍ﴾ ..

﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ..

\*\*\*

وأما الحقيقة الدنية .. وهي الأخرى البشرية ، فقد جلاها

روصعها في أحسن تفويم .

فالرسول الذي مشأ في بيعة قبلية، القبيلة فيها أوسع مجال

جغرافياً؛ وأرحب مدى لحدود التآحي والتعارف - يُطِلُّ بروحه  
عنى الأرض كلها والبشرية جميعاً - أبيضها وأسودها وأصفرها..  
ويتردد في القرن المُسرل على قلبه كلمة {العالمين} عشرات  
المرات ..

فالله ﴿أرب العالمين﴾ ..

والقرآن ﴿دَكَّرَ للعالمين﴾

والرسول ﴿أرحمة للعالمين﴾

\*\*\*

﴿لتكون للعالمين نذيراً﴾

﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾

\*\*\*

ومن بين جميع الأنبياء والمرسلين - كان محمد الرسول  
الوحيد الذي كتب لكل الملوك والرؤساء الجبابرة له، بل  
ولبعيدين منه

وهو حين كتب إليهم يسعهم كلمة الله، لم يكن بمسك قوة  
- أية قوة - تُصمى عليه سِمة الفانح، أو الراحب في فتح -

كان صاحب دعوة لا أكثر، أمره ربه أن ينفعها الناس جميعاً  
ولما لم يكن قادراً على أن يطوف بالأرض كلها، ويقابل

الشعوب جميعاً .

ولما كان الناس على دين ملوكهم إلى حد كبير . فقد اكتفى يرمئ بأن يبلغ ملوك الأمم ورؤساءها جوهر رسالته ليؤمنوا وليدعوا أقوامهم إلى الإيمان .

فهو بكتبه تلك التي أرسلها هنا وهناك . إما كان يحمل تبعاته تجاه البشرية كلها . إيماناً منه بوحدتها .

وحقيقة أن الناس كلهم إخوة .. تتجلى في القرآن الكريم تجلياً باهراً .

فالقرآن لا يرى هذه الوحدة في صورتها التاريخية والاجتماعية فحسب .. بل ويرأها كذلك في صورتها البيولوجية، وبهذا يعطيها قداسة أوفى .

ها هو ذا يتبع لأطوار البيولوجية لهذه الوحدة، فيقول :  
﴿ومن آياته ، أن خلقكم من تراب﴾ .

\*\*\*

ثم - ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾

\*\*\*

ثم - ﴿خلقكم ، والدين من قبلكم﴾ ..

\*\*\*

أما صورتها التاريخية والاجتماعية، فيعرضها في هذه الآية  
الكريمة :

﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختفوا﴾..

\*\*\*

فالبشرية إذن بدأت كلها من تراب، ثم من أب واحد..  
وهي كلها بدأت في التاريخ أمة واحدة وعالمًا واحدًا..  
أجل - كانت رعيلاً واحداً ذات يوم.. ولكن هذا الرعييل  
تحول مع تَمَوُّه المتكاثر، ومهجراته الكثيرة التي عَمَّرَ بها وجه  
الأرض - إلى شعوب وقبائل وأمم.  
وفيما بعد، وقد صار لكل شعب شخصيته ومصالحه، بدأ  
الخلاف، ولكن ستكون العاقبة أن تعود البشرية إلى نقطة  
انطلاقها في حركة "حلزونية" وفي مُستوى أعلى".  
وكذلك: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾  
هكذا أعطى القرآن الإخاء البشري قانونه، وهو يُتِمُّ صياغة  
هذا القانون في حِذْقٍ عظيم.

فإذا كانت الآفة التي تعرقل نمو الإخاء والتعارف هو  
التعصب فقيم يكون التعصب عادةً ؟..

إنه يكون للجنس.. واللون.. والسُعة.. فليُحق القرآن هذه

الآفة في محيطه ليعطى القدوة والمثل ..

لقد بدأ فأعلن - كما سبق - أن الله رب العالمين .

وأكرم الناس على الله، ليس أيصهم ولا أسودهم بل  
أثقاهم .

وأعلن الرسول ﷺ أنه . "لا فصل لعربي على عجمي إلا  
بالتقوى"

ورفع "بلالا" الحبشي . و"سلمان" الفارسي في دعوته وأمه  
مكائنا عليا ..

وهكذا نَحَى التعصب للجنس بعيداً.

أما اللون، واللغة فقد عجب القرآن، وعجب الرسول من  
الذين يجعلون مهما امتيازاً يعطيهم حقوقاً ليست للآخرين، بينما  
هما ليسا إلا آيتان من آيات الله..

﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض، واختلاف ألسنتكم  
واللوانكم﴾

\*\*\*

ورق "محمد" عليه السلام ينادي في الناس:

"ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا

بالتقوى" .. !!

وانتظم القرآن من آياته وكلماته، كلمات ليست عريضة،  
لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أَنَّهُ وَهُوَ الْكِتَابُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ لَا يَرَى فِي اخْتِلَافِ  
الْأَلْسِنَةِ مَدْعَاةً لِّلْعَصَبِ أَوْ انْطِلَافًا ۝ ١١

\* \* \*

وهذه الوحدة البشرية التي يقدمها ويهديسها الإسلام إلى  
الصمير الإنساني، لا تقوم على خواء.. ولا تستمدُّ بقاها من  
الأريحية الإنسانية، والنوايا الطيبة وحدها، بل تصل نفسها  
وقانونها بحدود لطبيعة الإنسانية كلها.. فحين يبادى الإسلام  
بالحب مثلا.. فهو يعلم أن الحبَّ حلال التطبيق في الإنسان  
وانزعاجات والغرائر، يشبه العلمية الحسائية لا تظفر فيها  
بمحاصل الجمع مثلا، إلا بعد أن تجري عملية الجمع أولا.. فلكي  
نظفر بالحب، يجب أن نظفر قبلها بأشياء كثيرة.. هذه الأشياء التي  
يرتبط الحب بها ارتباط حاصل الجمع بالإرقام المجموعة  
نفسها

أظنكم الآن تعجبون من إقحام الأسلوب الرياضي  
والحساب في شغافية الحب وألقه..

ولكن هذا، هو دور محمد العظيم .

وهذه هي هديته إلى الصمير الإنساني..

أَنْ يُحَوِّلَ كُلَّ اِقْيَمِ الَّتِي آمَنَ بِهَا وَآمَنَ بِهَا إِخْوَتَهُ  
الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِ - إِلَى قَوَانِينِ ثَابِتَةٍ وَاضِحَةٍ، لَا تَمَحُضُ عَنْهَا  
مَعَانِيهَا وَلَا الْأَنْفُسُ الدَّائِرَةُ فِي أَفْلَاكِهَا.. ١١.

ويعود للمثال الذي كنا نضربه وهو الحب ..

قلنا: إننا لا نطهر بالحب إلا بعد أن نظفر بمقدماته .

هذه المقدمات التي هي في نفس الوقت نتائج لمقدمات

أخرى .

فنحن نعرف أن الحب يؤلف بين الناس حقاً .

ولكن متى ؟..

عندما يكون العدل قائماً ..

أما حين يختفى العدل فلا يؤلف بينهم يومئذ سوى الحقد

والكراهية ..

ولكن هل العدل وحده مُنَاح الحب ؟..

كلا ..

فالعدل قد يكون صارماً، وقاسياً، ومُتَزَمِّتاً.. وعندئذ يختفى

التسامح، وتختفى الرحمة، فيعتفى الحب رغم وجود العدل ..

لقد كان المسيح يقظان لكل هذه الاعتبارات حين هتف

بالحب وجعل حياته محبة.



ولئن كانت أيامه لم تطل على الأرض حتى تبلغ دعوته  
مَذاها، فإن أخاه محمدًا ليواصلُ التقدُّمَ في حُطًى ثابتة ووعى  
عظيم

ليمت النوايا الطيبة إذن - كما أسلفنا - هي التي  
يستودعها "محمد" الأئمة البشرية.. بل سيضع بذرتها في أعرار  
الطبيعة البشرية والطبيعة الاجتماعية معًا .

وسيهديه القرآن إلى الطريق ..

إن البشرية الراقية عند القرآن تتمثل ن : -

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. وتواصوا بالحق، وتواصوا  
بالصبر﴾

فالحق، والصبر، هما معراج التفوق الإنساني، وقانون  
العلاقات الإنسانية .

فالتواصى بالحق - يعنى احترام كل حقوق الإنسان.

والتواصى بالصبر - يعنى أداء الواجب وحمل كل تبعات  
الرشد ..

وتحت حقوق الإنسان يدعم القرآن والإسلام كل الحقوق  
من عدل، ومساواة، وحرية، وسواها.

وتحت واجبات الإنسان، يدعّم القرآن والإسلام كل

الواجبات من أمانة، وتقان، واستقامة، وسواها  
يبد أن كل حق وكل واجب، يُشبه قطعة من لقود ذات  
الوجهين. فهو حق وواجب معاً ..

فالعادل مثلاً حق من حقوق الناس - يجب أن يالوه، وهو  
في نفس الوقت، واجب من واجباتهم، عليهم أن يُؤدوه.  
ومح حين يريد أن تظهر بإخاء عالمي ومحة صادقة، فإنه  
يجب أن يكون هناك توازن عميم بالحقوق والواجبات جميعاً  
بالحق والصبر كليهما ..

وفي عالم كعالمنا، متعدد الشعوب، كثير الدول، مُعظم  
بالتناقضات، لابد أن يكون تفضيلة الأخوة قانونها.

ولقد صنع الإسلام هذا

شاد العلاقات بين الأفراد على نسق قانوني مُحكم .

وشاد العلاقات بين الدول والأمم على نسق قانوني  
مُحكم ..

وفي كلا المجالين لم يُخرج الطبيعة الإنسانية، والطبيعة  
الاجتماعية من دائرة ملاحظته واهتمامه ..

فهي المحار الفردى وضع قانون السلام والإخاء على هذا

النحو

﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

فإذا عجز الإنسان عن هذا الأمثل والأفضل، وعجز عن مقاومة رغبته المشروعة في انقصاص.. عندئذ ..

﴿مَعَاقِلُوا عَثَلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ - وَلَيْسَ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

﴿وَجَرَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا - فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾

ويقيم التكافل بين الناس حتى يتآخروا ويتحابوا

فإذا كنت دائما لمدين مرهق ..

﴿أَفْطِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وإذا كنت أميماً على وديعة أو حق ..

﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ ..

وعلى الإنسان أن يَهَبَ الناس حُجَّتَهُ وتواضعه وإكباره.

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾

\*\*\*

﴿وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾

\*\*\*

﴿وقولوا للناس حسناً﴾

\*\*\*

﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾

\*\*\*

﴿وإذا قلتم فاعدلوا . ولو كان ذا قربى﴾

\*\*\*

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾

\*\*\*

﴿وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى﴾

﴿ولا تمشوا من فضل الله به بعضكم على بعض﴾

﴿ولا تقربوا الفواحش، ما ظهر منها وما بطن﴾

\*\*\*

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا

خطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾

\*\*\*

وأما مجال العلاقات الدولية فقد صاغ لها هي الأخرى

قابوسها الذي يحقق إحياء عالمياً وسلاماً دائماً .

فالدول عادة تتنازع وتحترب حول مناطق المرد والثروة

فليبدأ القرآن بإعلان هذه الحقيقة .

﴿اعلق لكم مائى الأرض جميعا﴾

فلكى تكون الحياة للجميع، ينبغى أن تكون مصادر الحياة للجميع أيضا.

فإذا ما أخذت كل أمة نصيبها، ووضعناها معاديرها فى مكانها من الأرض، وحفظها من الرزق، فيحترم لكل ذى حق حقه ..

وعندئذ :

﴿لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾

والعدوان بكل أشكاله يجب أن يدحض ويشجب ..

وإذا كان عدوانا مسلحا، يستهدف قتل النفس وتحريب الحياة، فيجب أن يقاوم ..

وأسلوب مقاومته يتتظم المراحل التالية:

أولا .. يطيب من المعتدين أن يكفوا عن عدوانهم، ويؤثروا تعايشا سلميا صادقا.

﴿لكم دينكم، ولى دين﴾

\*\*\*

﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم﴾ ..

﴿وَقُلْ آمَنَّا بِمَا أُرْسِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ، وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ..﴾

﴿اللَّهُ رَبُّهَا وَرَبُّكُمْ . لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ . لَأَحْجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.. اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

ثَابِتًا - فَإِنْ أَصَرَ الْمُعْتَدُونَ عَلَى عَدْوَانِهِمُ الْمُسْتَحَقَّ فَعِنْدُنَا  
﴿إِنْ لَدَيْنَ لُذِينَ يُقَاتِلُونَ، بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَإِنْ اللَّهُ عَلَى بَصَرِهِمْ  
لَقَدِيرٌ﴾..

﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾  
ثَالِثًا - فَإِذَا قَاءَ الْمُعْتَدِي إِلَى رُشْدِهِ وَأَعْمَسَ رَغْبَتَهُ فِي  
الْإِسْحَابِ أَوْ الصَّلَاحِ . وَجَبَ أَنْ يُجَابَ إِلَى رَغْبَتِهِ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى  
لَوْ يَكُونُ مَخَادَعًا..

﴿وَأَنْ خَشِعُوا لِلِّسْلَمِ فَاجْتَنِعْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ  
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ-

﴿وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبْتَ اللَّهَ، هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ  
بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾

\*\*\*

وهكذا يعلم القرآن رسوله، إذا دعوك للسلام فباكرهم  
إليه، حتى لو أرادوا بذلك خداعك، لأن واجبك ألا تضع فرصة

السلام مهما تكن هذه الفرصة وَهَذِهِ وَمَهْمَا يَكُنِ الشُّكُّ فِي صَبِيغَتِهَا وَيُشَارِكُ السَّلَامَ، وَحَفِظَ السَّيِّئَ الْمُسْفُوكَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَقِيكَ شَرًّا خَدَاعِهِمْ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ..

رابعاً - إذا عدوا للقتال، فقاتل، وكسر ليكن قتالك دفاعاً، لا تبغى به آياً من أغراض الحياة، وليكن موجهها صد الناعي عليك وحده .

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، وَلَا تَعْتَدُوا﴾

\*\*\*

خامساً - وأما المحايدون وحترم حيادهم، حتى لو يكونوا من نفس القوم الذين يهاجمونك ويقاتلونك .

﴿...خَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ، وَإِنْ اعْتَرَفُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقُرْآنُ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾

\*\*\*

أما الدول الصديقة، فالقرآن يدعو الرسول إلى توثيق العلاقات بها، مهما يكن اختلاف العقائد والدين..

﴿لَا يَهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

## المقسطين

\*\*\*

وأما الآخرون الذين ليسوا أصدقاء مسالمين ولا أعداء مهاجمين.. وإنما هم يسيطرون ألسنتهم بالسوء ويديرون حرياً باردة، ويعبرون عن عدائهم بوسائل لا تبغ حد الهجوم المسلح بموقف المؤمنين منهم يتمثل في هذه الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾

وتكشف آية أخرى عن صفتهم فتقول

﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعًا مِنَ الدِّينِ أَوْ تَوَارَ

الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾

حتى حين يدعوهم لتجنب الدين يسخرون منهم ويؤثنون

ألسنتهم عليهم، يأمرهم أن يكون هذا التجنب في غير معنى

يأمرهم أن يتجنبوهم في رفق وعدل وتقوى :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

\*\*\*

وفي التطبيق العملي، يجد الرسول محمداً قد عاش هذه

الآيات.

بعده قد بدى من ذات نفسه في سبيل الحب والسلام ما ينوء



بحمله بشر.

فلقد لبث في مكة ثلاث عشرة سنة كاملة، يلاقى كل صوف الأذى ولاضطهاد والسحرية وهو لايزيد عن أن يقول:  
'اللهم اعقر لقومي، فإنهم لا يعلمون'.

لم يكن ذلك ضعفا.. فإن الضعيف مهما يكن ضعفا، قادر على أن يلصم خصمه أحيانا، أو يكيد به، أو يثور عليه أما الرسول، فخلال ثلاث عشرة سنة، لم يلطم إنسانا نطمه، ولم يحمل إنسان ضعفا.. بل كان يبدو، وكأنه يستمتع بأذى قومه وخصومه..

وحين افتقد ليومين أو ثلاثة أيام، دث الرجل الذي اعتاد أن يلوث باب داره كل صباح بروث البهائم ..  
حين افتقده الرسول، وعجب كيف مضى يومان لم يقترف فيهم فَعْتَه، سأل عنه، فلما علم أن المرض أقعده . خسف إلى داره ليعوده وليدعوا به بالعافية !!..

ثلاثة عشر عامًا كاملة يقول للذين يشعونه أذى وعدوانا.  
﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ !!..

وبعد هجرته وأصحابه إلى المدينة، وبعد الحديبية حين بدا أن قريش تريد أن تحج للسلام. قبل كل شروطها مع مدحة

هذه الشروط قد اذحة جعلت المسلمين يصحون لقبولها .

فعل الرسول ذلك لأنه يريد السلام.

وحين أحاطت به وبدينه وبأصحابه المؤامرات المدججة بالسلاح والعدو، ولم يعد أمامه إلا أحد طريقين - المقاومة.. أو الاستسلام لقوى لا ضمير لها.. اختار المقاومة، لأن واجبه يفرض عليه اختيارها .

وعندئذ رسم لنفسه ولأصحابه حدود المعركة، فهي لا تتجاوز تلك الأيدي المنقضة بالسلاح من العراة الرجال .. أما ما وراء ذلك، فقد زجر النبي في حشمه عن أن تقتل امرأة، أو عطف، أو شيخ ..

ونهى عن أن يحرق بخل، أو زرع، أو يهدم بيت..

\*\*\*

هكذا في إيجاز تلقى الضمير الإنسان من القرآن والإسلام هذه الوثيقة في قضية الإخاء الإنساني.. والعلاقات الدولية . وإنما لتلخص في هذا المبدأ:

(لناس جميعهم السلام، ولاعدوان إلا على الظالمين)

\*\*\*

أما الحقيقة الثالثة، وهي أن "الخير" هو غرض الحياة ومناط

مسئولية الإنسان فإن "محمدًا" بهذا يرفع مستوى الحياة الإنسانية كلها إلى كمالها الميسور والمقدور.

وهو لا يحامل الحياة ولا لإنسان بهذا، بل يحدد لهما طبيعتهما وغرض وجودهما .

والخير لديه إيجابي دائما.. وهو قرين الإيمان، فالقرآن دائما يذكر الإيمان مقرونا بالعمل الصالح .

﴿إِنَّ الدِّينَ أَمْسَا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ﴾ ..

والقرآن يخاطب الرسول نفسه قائلا:

﴿فَلَدِّلْكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾

والخير الذي يدعى الناس إلى أن يتأروا في إحراز حظوظه الرافية إذ يقول:

﴿مَسْتَبْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

هذا الخير يعني الاستقامة على الجادة، وجعل تبعات الوجود في ذمة .

وللخير أيضا قانونه ..

وإذا كانت أولى تبعات الوجود أن يؤمن برب هذا الوجود ونخالقه، فإن هذا لإيمان يقتضيك أن تعبد الله..

وعبادة الله في التحيل النهائي لاتعنى أكثر من إسداء الخير  
نفسك. أجل لنفسك أنت.

فإنه - بدهة - لا يتفجع بصوات الناس حين يصلون،  
ولا صدقهم حين يصدقون، ولا بأمانتهم حين يكونون أمناء،  
ولا بوفائهم وسخائهم حين يكونون أوفياء، أسخياء.

إنما يتفجع بهذا ذروه.. إذ يزكُّون بكل هذه الشعائر  
والفصائل أنفسهم، ويؤمنون كمالهم الإنسان، ويؤمنون  
مصيرهم

والصلاة - مثلاً - ليست سوى لحظات أمن وسكينة،  
تجدد حلالها وتنمو علاقة الإنسان بأعظم قوى الوجود وخيرها  
- الله رب العالمين .

وشعائر الدين وأخلاقياته، ليست إلا تدريباً لقوى النفس  
والروح، وراداً لأعنى للنفس وللروح  
وإن لكل مجتمع أخلاقيات التي يرعاها العرف ويحميها  
القانون

بيد أن المزية العظمى لربط الخير والفصيلة بالإيمان تتمثل في  
أن هذا الربط يجعل الفصيلة ذاتية.. يجعلها جرعاً من نفس  
صاحبها وحياته، لا يستعنى عنها إلا كما يستعنى عن عضو من

أعضاء جسمه ..

أما ربطها بقانون العقوبات، فإنه يجعلها مضيعة اجتماعية.  
قد يرتبط الإنسان بها على كره .

أجل . إن ربط المضيعة بالله .. يجعلنا نعيشها

أما ربطها بالقانون ، فيجعلنا نعيشها ..

والخير عند الرسول هو وظيفة الإنسان ووظيفة الحياة معا ..  
ومن ثم فليس هناك أية قوة تستطيع أن تجعل الإنسان غير  
مهيئاً لممارسته .

فأفدح عطايا الأرض لاتسبب الإنسان عجزه ، إلا لحظة  
ارتكابها أو إبان إدماها ..

أما بعد أن يأسف ويعتذر إلى الله، ويعقد العزم على متاب  
﴿وَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾

\*\*\*

﴿مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْحَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾

\*\*\*

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾

\*\*\*

والخير سمفهومه هذا . أى الاستقامة والعمل الصالح

وحمل مسئولية الوجود، يبقى إذا نُحِيَ عنه الرياء والمُقايسة.

ومن تَمَّ قُلُسُ الإسلام الإخلاص، فائلاً:

﴿واعبد الله مخلصاً له الدين﴾

﴿يريدون وجه الله، وأولئك هم المفلحون﴾

\*\*\*

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطسراً ورئساء

الناس﴾

\*\*\*

والقرآن حين يقول :

﴿فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً﴾

إنما يضع مثوبة الخير في أعلى مقام.. فمهما يظفر الخبِرون

من ثواب ونجاح في الدنيا؛ فإن ثوابهم عند الله أوفى وأعظم..

ومسؤولياتنا عن الحياة الدنيا مرتبطة بمصيرنفس في الحياة

الأخرة — هكذا يقرر القرآن

إذن هناك خلود يؤمن به الإسلام... وإذا كان الضمير

الإنساني قد استشرق الخلود منذ أيامه الأولى، فإن الإسلام

يعرض قضية الخلود، وعقيدة البعث والحياة الأخرى عرصاً

سديداً .

إنه يراها ركنًا من أركان الإيمان.. ولقد أجرى القرآن حواراً باهراً مع مكبرى البعث والمؤمنين باستحالته.. فالله: -  
**﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَقْوَنَ عَلَيْهِ﴾**.

لو أرينا بذرة "مانجو" لمخلوق، لم ير الأشجار قط ولا يعرف عنها شيئاً وقلنا له: إن هذه القطعة المتعشبة المينة ستُبعث شجرة وارفة مثمرة بالثمر، لصعب عليه تصديق ذلك..  
 ولقد كان الكافرون بالبعث يقفون موقف هذا المخلوق.. وكان بعضهم يأتى بعظام ميت ويقول: أبعث الله هذا بعدما رَمَّ؟  
 وكان القرآن يجيبهم: أن: نعم .

**﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾**...!!!

ويسألهم الله سبحانه:

**﴿أَفَعَيَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ...؟ بَلْ هُمْ فِي كَيْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾**!!

\*\*\*

أما الحقيقة الرابعة، وهى أن الحياة شروق متحدد للمعرفة والعلم، فإن الاهتمام بها يبدأ مع أول أمر تنقاه الرسول من ربه.

لقد كان : - اقرأ ..

كما كانت أول نعمة من بسها الله على عباده مذكراً إياهم

بجميل فضله هي :

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

ولعلنا يُذكرُ القرآن الناس بأنه لا يستوى الذين يعلمون،  
والذين لا يعلمون.. تمامًا. كما لا تستوى الظلمات والنور .

والعلم لدى القرآن ليس تفوقاً عقلياً فحسب.. بل هو  
تفوق أخلاقي أيضاً - فأكثر الناس معرفة بالله وخشية له، هم  
العلماء .

﴿وَمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ إِلَّا يَابِ﴾

وبهذا أيضاً يكشف القرآن عن حقيقة العلم الحق،  
والمعرفة القديمة.. فليس العلم مجرد تحصيل، وليس العالم بمجرد  
لقب.. بل هما أن يكون نصيبك من الخير مساوياً لخطئك من  
العلم أو يزيد.

والعلم دائماً موضع تكريم الله واعتزاز الأنبياء.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رِيبُكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

\*\*\*

﴿وَأَنَّهُ لَدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾



﴿يتلو عليكم آياتنا، ويذكركم، ويعلمكم الكتاب  
والحكمة﴾

﴿ذلكما مما علمني ربى﴾

\*\*\*

ومن القرآن تلقى الضمير الإنسانى أدكى اللقنات واروعها  
نحو قيمة المعرفة ومدادها .

فالقرآن يثير فى الضمير الإنسانى دائما أشواقه إلى الغيب..  
وإلى الكون كله، ويقنحهم بالعقل الإنسانى أسوار المجهول، ويقيم  
لوحدة الكون قاعدة من العقل والظن والاستدلال.

لقد حاولت الفلسفة من قبل أن تعرف حقيقة الشمس،  
والقمر، والأرض - ونحسب فى هذا السبيل حدسها المشكور .  
لكن ديناء كل وظيفته كما بحسب الناس، أن يدعو لطاعة  
الله، ومكارم الأخلاق.. ما شأنه بالحديث عن طبيعة الكون  
وحقائقه.

إنه لعظيم حقا حين يدع العقل الإنسانى إلى الغوص،  
والتحليق وراء المعرفة الكونية فى غير إجحاف أو تقيب.

ولم يكن المهم يرمذاك أن يتحدث القرآن عن تفاصيل هذه  
الحقائق .

إِنَّمَا كَانَ انْهَمَ أَنْ يُعْلَنَ أَنَّ بِحِثِّهَا لَيْسَ مَحْظُورًا . بَلْ مَطْلُوبًا .  
وَأَنَّ يَشْجَعَ الْعَقْلَ عَلَى تَحْدِيٍّ لَصُمْتٍ وَالْوَجْهَ أَمَامَ الْعَيْبِ  
وَالْكُوتِ .

وَفِي سَبِيلِ هَذِهِ عَمَدٌ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْأَرْضِ ، فَحَدَّثَ  
النَّاسَ عَنْهَا حَدِيثًا جَدِيدًا .

وَلِلشَّمْسِ لَيْسَتْ كَوَكَبًا ثَابِتًا كَمَا يَعْتَقِدُ النَّاسُ بَلْ هِيَ :

﴿تَجْرِي لِْمُسْتَقَرِّ هَا﴾

﴿تَجْرِي لِْمُسْتَقَرِّ هَا﴾

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

وَالْأَرْضُ لَيْسَتْ ثَابِتَةً فِي مَكَانِهَا - اقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ :

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ ثَمَرٌ مَرٌّ السَّحَابِ

صُنِّعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

وَلِلسَّمَاوَاتِ لَيْسَتْ فَرَاغًا ، بَلْ إِنَّ فِي كَوَاكِبِهَا لِمَخْلُوقَاتٍ

كَثِيرَةٍ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ

دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾

وفي تعبير القرآن عن السماوات بصيغة الجمع.. مقابل  
كوكب الأرض بصيغة المفرد ما يشير إلى أن المعنى بالسماوات  
هنا تلك الكواكب الساطعة في الفضاء الأعلى.

ما معنى ذلك؟ إن ذلك لا يعني بحال أن القسرات كك  
فلك.. ومن ثم فهو لم يسهب في هذا المجال.

وإنما معناه أن الأرض على اتساعها ورعم غزارة أسرارها،  
ليست اجمال الوحيد تتطلع لإنسان وششاط عقله وتفكيره.. بل  
اكون كنهه مجال هذا التطلع وهذا التفكير

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وعلى الصمير الإنساني أن يستشرف ..

وعلى العقل الإنساني أن يفكر ..

عليهما معاً أن يتهيأ لرحلة لا تنهى إلا حيث يجدان  
نفسيهما أمام المطلق الأعظم وجهها لوجه.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾

إن الوعي الديني لقضية المعرفة يبلغ في القرآن وعند الرسول  
"محمد عليه السلام" أوجاً فريداً .

ولن نجد ديباً أهاب بالعقل وبكل قوى الذكاء الإنساني

لكي تأخذ دورها القيادي في موكب الحياة وقافلة البشر، مثمما  
فعل القرآن ومثلما فعل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.  
لقد أعلن القرآن أن محمدًا خاتم الأنبياء .  
لقد أرسيت بصورة نهائية قواعد الخير الأسمى والارتقاء  
الروحي للحسن البشري كله.

ولقد قال الوحي وقالت النبوة كلمتهما الهادية والفاصلة في  
كل القيم التي تُشكل معراج البشرية إلى كمالها المقدور .  
فليتقدم العقل، وليحمل المشعل الذي هياه له الله، وليذهب  
دات اليمين وذات الشمال، باحثاً وفاحصاً مشعاً  
وكي يتهيأ الضمير الإنساني لحمل المسؤولية كاملة ففهم  
مضى الإسلام يزكي ويدعم حرية الضمير ..  
وفي وصوح كامل بدأ هذا الدعم بإعلانه أن حرية الضمير  
ليست متحة بل حقاً.. وليست نافلة بل ضرورة  
أجل، فحين أعس الإسلام مسئولية الإنسان عن أعماله  
أعلن في نفس الوقت ونفس السبب، حرية ضميره.. إذ أن  
المسئولية لا تكون إلا حيث يستطيع الإنسان أن يختار  
صحيح أن الإسلام تحدّث عن القدر الإلهي، وجعل الإيمان  
به محتوماً .

ولكن القدر في مفهومه النسوي، لا يعنى إلغاء الاختيار  
الإنساني .

فالقدر أربلا، وقبل كل شيء، إنما يتمثل في تلك القوانين  
وسُئِلَ إلى جعلها الله قياما بكون وبلحياة.  
ومن هذه القوانين:

﴿وَلَا تُعْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وبه في الوقت الذي رفع القرآن يمينه - الإيمان بإرادة الله  
المطلقة، رفع يمينه الأخرى - وكلتا يديه بمين - الإيمان  
بمسموعة الإنسان.

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ﴾

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾

وإنه لسداد عظيم أن يعمل الناس في ظل إيمان بقدر الله،  
وحقهم في الإرادة والاختيار.

- معتنى لأيمانوا اختيارهم في بوضي وجهالة، يذكروهم  
القرآن بأن الله قد جعل لكل شيء قدراً، وأن كل حروح على  
السُّبُل التي وضعها الله، ليس إلا اسزلاقا نحو الهاوية .

- وحتى لا يُمارسوا اختيارهم في عرور وجبروت يذكروهم

بأن الله قَدَرًا يسفطيع أن يكبح جماح كل غرور وكل حَيَوت. -  
وحتى لا يجبنوا عن ممارسة اختيارهم، يخبرهم أن سعيهم  
في الحياة مقدور . إنه قدر، وهل هالك أقوى من القدر.. فليتقدم  
كل إنسان إدد في طريق حياته يكشف حُبَّاه ويُفضُّ مجهوله وهو  
في مثل قوة القدر.. إن القرآن يقول:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

فإذا كانت مقاديرنا تنتظرنا على التَّسَقُّ الذي رُدَّاته إرادة  
الله الباعثة، فما نخصي نحو هذه المقادير على وجل.. وهل  
أخفيت عن الناس مقادير حياتهم إلا لكي يدرسوا ذكاءهم  
واختيارهم على أوسع نطاق وأشجعيه ..؟

لقد ترك الله للإنسان مجال نفوذ رحيب يُمارس فيه اختياره  
الحُر الرشيد . وصان من أجل هذا حرية صغيره، فأعلى القرآن  
أه :-

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

وكان دائب الحرص على أن يبين وظيفة المرسلين، ويُلزِمها  
بأن تدخُل في كل حسابها، حرية الضمير ومن ثَمَّ، فالرسول -  
كل رسول - يس لا مُبلَّعا كلمة الله، ومبينًا طريق الرُّشد .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ﴾ فاللسان

ونقول والكلمة - هي أداة البلاغ، ووسيلة لإقناع أما بعد هذا،  
 - «لست عليهم محسب»

\*\*\*

«إن عليك إلا البلاغ»

\*\*\*

«وما أنت عليهم بمبار»

\*\*\*

وبعد ..

هكذا تبقى الضمير الإنسان آخر كلمات الدين.. الدين  
 كله مد أول رسول، حتى آخر المرسلين.. ولقد كان لكل  
 رسول منهجه التشريعي الذي يلائم بيئته وعصره. ويجتمعه،  
 لكن الأديان جميع ليس بينها من تفاوت في إدراك جوهر الخير،  
 هذا الجوهر الذي تمثل في القيم العسا التي أجمع عليها الأسياء،  
 والمصححون، والبشرية كلها، لقد أفرع الدين على هذه القيم  
 نورا لا يخفى أبدا .

\*\*\*

و ذات يوم، رحل محمد عليه لسلام عن دنيا لناس، بعد أن  
 رفع - عاليا - مشعل الهدى والخير، وبعد أن سادى الضمير

وإعمل ليأخذاً مكنهما في قيادة القافلة الإنسانية، ويحملاً  
المسئولية كلها، في رعاية الله، وفي هدى كلماته .





## الفصل الثالث



### في عصر العقل



إن كلمة "العقل" هنا، لا تعني الضيق أو النقيض لكلمة  
"الإيمان" ..

و"عصر العقل" الذي نتبعُ رحلة الضمير خلاله، لا يعني  
العصر الذي انفرد وحده، ودون بقية العصور باحترام العقل  
وتحكيمة، كما أنه لا يعني العصر الذي خلا من الإيمان ففي كل  
العصور كان الإيمان والعقل يعملان معاً تارة، ومنفردين تارة  
أخرى، والحضارات الشامخة التي قامت في الماضي العبد في  
مصر، وآشور، وبابل، والفرس، والصين والهند، وفي سبأ..  
كانت الثمار الحلوة لتعاون الإيمان والعقل في بناء الحياة ..

عصر العقل إذن - كما نعنيه - هو العصر الذي سادت  
فيه المعرفة التجريبية، العصر الذي يستمد أحكامه من التجربة  
الموضوعية، والذي اقتحم ملاحظاته ومختبراته مناطق المجهول

وكشف أسرار، والذي جعل هدفه، سيطرة الإنسان على الطبيعة وعلى شئون عالمه.

ولقد نادى الصميرُ العقل إلى مكان القيادة حين أحس حاجة الإنسانية إلى كلمته وحِذْقه وإذا كان الصمير الإنساني جديد البصر بالمقادير الجديدة لبني الإنسان، فقد أدرك في الوقت المناسب حاجة البشرية لكل قُوى العقل وكل إنتاجه.

نقد رأينا كيف تلقى انضمام من الإسلام ورسوله، هذا الدرس درس الإلهابة بالعقل الإنساني كي ينظر في ملكوت السماوات والأرض، كي يتقدم ليحمل مسؤوليته عن حماية القيم العليا ومسؤوليته عن بناء الحياة .

وعصر العقل بمفهومه الواسع، لم يبدأ في أوروبا، ولا في عصر النهضة إنما بدأ في ضل الحضارة الإسلامية بدءاً من القرن السابع الميلادي. بدأ، يوم شرع علماء الإسلام ومفكروه، يُحكّمون العقل حتى في مقدساتهم الدينية .

ثم يوم جاء جابر بن حيان، والخوارزمي، والكندي وثابت بن قُرّة، والرازي. يصنعون أسس علوم الرياضيّة، والفلك، والكيمياء، والجبر، والطب .

يوم كان " ابن الهيثم " يمشي، ويضع أسس علم الضوء

الحديث كله. أيام كان "الفاربي" يشيد "مدينته الفاصلة" .. أيام كان المعتزلة يحكمون العقل في المصووص المنزلة .. وكان 'إخوان الصفا' يوجهون حركة العقل في قوة نحو طوائع الأشياء. ويلخصون منهجهم العمى في وجوب معرفة كل شيء عن كل شيء

وعن حقيقة الشيء . . . يسألون : ما هو ؟..

وعن مقدارها . . . يسألون : كم هو ؟..

وعن صفته . . . يسألون : كيف هو ؟..

وعن نسبته . . . يسألون : أى شيء هو ؟..

وعن مكانه أو درجته . . . يسألون : أين هو ؟..

وعن زمانه . . . يسألون : متى هو ؟..

وعن علته . . . يسألون : لِمَ هو ؟..

وعن تعريفه . . . يسألون : من هو ؟..

وأيام كان "ابن سينا" يشيد فلسفته على أساس من تقديس العقل، واعساره أعلى قوى النفس، و"بناقس" أرسطو "وفلاسفة الأعريق جميعا مناقشة البدل للند، قائلا:

'إن لنا عقولا كعقولهم' . !!

ويعلن أن القدر الإلهي لا يعنى التدخل في الحياة العادية

لباس، إنما يعي سلطان القرانين الكونية التي سبها الخائق العظيم  
وجريانها في نوااميسها.. ويحيى إرادة الإنسان وعقله، ويسادى  
بأن مصير البشر رهن بما تستطيع الإرادة والعقل أدائه في حرية  
واختيار يقول :

● - 'حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء، وقد آن  
أن تكون لنا فلسفتنا ورأينا'

وأيام كان "ابن باجة" يحرر الفلسفة من سيطرة الجدل  
الارسطي، ويأخذ بزمامها من التفكير المثالي والخيالي، إلى التفكير  
العلمي وأيام كان هناك "ابن رشد" يصحح أغلط الفكر،  
ويسمى أرسدته ويعلم أن الحقيقة مقدسة وأن التقليد عصا  
العميان، وأن العقل مُعلم وإمام .

وأيام كان "ابن النفيس" يكشف الدورة الدموية لأول  
مرة . و "ابن البيطار" يضع أسس علوم النبات . و "ابن سينا"  
يدهل الدنيا بعقيدته التي لا يكاد التاريخ يعرف لها نظيراً ..

أيامئذ، بدأ عصر العقل وكانت البداية رائعة ومن ثم  
فقد انتشر نورها.. وطل عصر العقل يتكون ويمو حتى جاءت  
المرحلة التي بلغ فيها جيشاه العظيم محدثاً في الحياة الإنسانية  
تلك التعبيرات الكبرى وكان المسرح في هذه المرحلة .. أوروبا ..

و لم يَلُثَ العقل ، لا قليلا حتى تحول إلى "علم" وصار عصر العقل ، عصر العلم ، وعصر الإنسان أيضا .

وفي هذا العصر ميلاقي الضمير الإنساني موجات عنيدة من التحدى والتمرد . بيد أنه لم يكن منها جزءاً ولا بها يائسا . بل سيحتفظ بسهوئه وتفاؤله ، مؤمنا بأن العقل الذي من حقه أن يعرف كل شيء ، سيعرف الحق ويهتدى إليه

وفي عصر العقل هذا — عصر التغيرات الكبرى ، سيبليغ الضمير الإنساني أمره ، وسيكون العقل أدواته في الإجهار على الكثير من عوائق التحلف البشري .

ويبدأ عصر العقل في أوروبا ثورات وحيشائه ضد الدين .

أو بتعبير أصح ضد التدثُّن ، سيما المسيحي منه ..

ولقد كان موقفه ذلك ردّ — فعل يكاد يكون محتوماً — للقرون الكالحة التي انحرفت فيها الكنيسة عن رسالتها ، وجعلت من نفسها "مطرقة" تحطم في وحشية كل ما هو جميل في الناس وفي الحياة ..

وحسبها من خطاياها يومذاك ، محاكم التفتيش — هسده المحاكم التي بدأت ضد مسلمي أسبانيا ويهردها ، ثم مالبت أن أدبرت وجهها الياسر وعدوانها البشع نحو المسيحيين أنفسهم ،

فراحت تقتلهم، وتدفنهم أحياء راعمة في سخرية ماجنه، أنما  
لاتقتلهم وإنما تحلّص أرواحهم !!...

ولقد تعذب الصمير الإنسانى من تلك المشاهد عذاباً  
أليماً.. ولكنه كعادته اتخذ من بلائها مزية عظيمة، فصنع من  
كوارثها آثر مسمار في نعر "التعصب المنظم" ..

لقد كان التدين شيئاً مختصاً عن "الدين" .. وعادت الصقوس  
والأشكال تأخذ مكان الروح والجوهر .

ولما كان الشك من وسائل العقل، فقد اتجه الشك أو من  
اتجه إلى تلك القوة التي كانت تسيطر على كافة شئون الإنسان  
وهي قوة رجال الدين وسطانهم.. وحمل الدين في صوصاء  
المعركة أورار المخترفين الذين يأكسون به، وأورار الخرافات التي  
تصمّلت عنده. ولكن الصمير كان رابط اجأش مطمئناً إلى أن تقع  
المعركة سيندد آخر الأمر، آخذ معه الباطل، وستبقى قضية  
الإيمان ثابتة ظافرة هادية .

والشك المستثير لا يزال من الإيمان بالله منالاً.. ويومئذ كان  
الفيلسوف الذى جعل شعار العقل والمعرفة "شكٌ تعرف" .. كان  
هذا الفيلسوف - ديكارت - نفسه، يقول أيضاً:

- "وأجد في نفسى فكرة عن الله كجوهر لا حدود به..

"عالم بكل شيء... به خلقت أنا  
ومائر الأشياء..."

"فهل من المعقول أن تنبثق هذه الصفات العظمى الفائقة من  
الطبيعة الناقصة المحدودة التي أراها في...؟"

"فهل من المعقول أن تنبثق هذه الصفات العظمى الفائقة من  
الطبيعة الناقصة المحدودة التي أراها في...؟"

"لقد عبّرت لشجرة القائمة بين نفسي، والحقيقة الخارجية  
عنها، وينبغي أن أَسْمَ بوجود الله الكائن الوحيد الأعظم" ..

\*\*\*

إن البشرية في صحتها، تريد أن تنحى عنها كل ما يقيد  
روحها، وتريد أن تختار بنفسها شروط حياتها أفيصير ذلك  
أبدياً لحق في شيء...؟؟ كلا. وإنما يصير السلطات المتفعة  
بالدين، ومن ثم نراها تُطارَد العقل بتهمة المروق والإلحاد... ثم  
بتهمة هدم التقاليد؛ ذلك أنسهم يريدون من العقل أن يلبس  
مُروحهم، ويشي أهواءهم. يريدون منه أن يتنازل عن كل  
شكوكه، واستفساراته، ويبقى بكل ما في جعبته من علامات  
الاستفهام في قاع المحيط.

ولكن العقل يرفض هذا؛ ولا يتحلّى عن الشك أبداً، فهل



يُجىء اليقين إلا من الشك ؟..

هل اكتشف "سقراط" يقينه إلا حين أخذه الشك في

خرافات قومه ؟..

هل وجد "المسيح" يقينه إلا بعد أن أخذه الشك في أكاذيب

كهنة أورشليم وما حولها ؟؟..

هل وجد الرسول " يقينه إلا بعد أن أخذه الشك في صلال

عناد الأصنام في مكة ؟..

إن انعدام الشك الذكي ليس سِمَةً الهدى بقدر ما هو علاقة

الخطأ قُوى الروح والعقل .. وإن عصر العقل يعنى "عصر

البرهان" .. وكل حقيقة لها برهان لا ضير عيسها من الشك

والتساؤل . والضمير الإنساني يحسُّ المعام الخيلة التي ستُتاح

للشخص حين يتحرر تفكيرهم، وحياتهم، وإراداتهم، وحفهم في

التجربة والاختيار .. ولا ميبيل لهذا التحرر مادام التعصب قائماً ..

والتعصب لا يرحل، إلا حين يصير الشك الذكي مُباحاً

مشروعاً . وليس في هذا ما يصير الدين الحق، بل فيه ما يذعنُه،

ذلك أنه إذا كانت مهمة عصر العقل أن يُهيئ الإنسان ليُحكم

سيطرته على الحياة والطبيعة، فهذا تقرُّ عين الدين وينشرح قلب

الإيمان .

وإذا كان الوحي قد سار بالعقل طويلاً، فقد كان — هذا يُعده للسير بعد ذلك وحده مُرَوِّدًا بالبقايات الصالحات اسنى غرسها الوحي في الضمير . أما عرقلة العقل ، وشدة خطاه بتلك التفسيرات المثبطة فأمر أدرك العقل والضمير أنه مُجاف الديسن، ومن ثم لم يربطاً مصيرهما به .

لقد كان "جاليليو" صادقاً وهو يقول عام ١٦١٣ في رسالته إلى الأب "كاستيلي" أستاذ الرياضيات في "بيزا" :

— "إن معرفة الله، واكتشاف الطبيعة ممكنان عن طريق العقل والرياضيات ..

"وهذا يجب تفسير الكتب المقدسة بالأسلوب الذي لا يجعلها مُناقضة للنتائج التي تأكدنا منها، وتثبتنا من صحتها" وأدرك "سبينوزا" وجه الصواب وهو يقول :

— "إن الخير الأعظم في كشف العلاقات التي تربط العقل بالطبيعة كلها.. فكما ارداد العقل معرفة، كان فهمه لغاياته وغايات الطبيعة أفضل.. ومن ثم يصير أقدر على تحرير نفسه من الأشياء التي فقدت جذواها — تلك هي الطريقة كلها .."

\*\*\*

وكما طُورِد العقل بتهمة الإلحاد والرواق، وطُورِد كذلك

بتهمة هدم التقاليد الموروثة الفاضلة ..

تُرى، من الذى جعلها تقاليد، وفاضلة...؟؟ أليس هو  
الصمير والعقل ١٩..

ثم ما هى التقاليد...؟ أليست أسلوب الحياة الذى يصنعها  
الناس لأنفسهم خلال انهماكهم جميعاً فى كدحهم من أجل  
العيش، والتقدم والمعرفة ٢٠..

كيف إذن نأخذ صورة واحدة جامدة لا تتغير ، ولا  
تتطور... ١٢٢..

ألا إنه كم من تقليد فاضل، لم يصير تقليداً، ولا فاضلاً إلا  
بعد أن أُنعد مكان تقليد آخر سبّقه، كان هو الآخر فاضلاً !!..  
سيشك العقل إذن فى كل ما يحلوا له أن يتعرف إليه  
بشكوكه . وصحيح أنه سيَجْعُ بِشكوكه أحياناً للعبأفة  
المُسرفة والتطرف الوعر.. ولكن، رغم هذا لسن تفسد لال  
شكوكه على أن تطمر تحت ترابها حقيقة واحدة.

بل ستخرج لحقائى من هذا الاختيار العسير أكثر ألقساً،  
وأشدّ تماسكاً .

وصحيح أن عصر العقل سيقترف نفس الخطأ الذى حساء  
ليصلحه.. فسوف نراه يُغالى فى تقدير منهجه وأدواته.. سسنراه

يُسرف في إصدار أحكام نهائية بينما هو يستمدُّ بصيرته من  
عدم ارتياحه للأحكام النهائية .. ١١

سنراه يتورط، فيخلع "المُطلَّقات" على أشياء نسبية، ويمنع  
"الدَّيْمومَة" لعمميات زمنية زائلة.. يبد أنه رغم هذا، ستبقى له  
مزيتة التي ستحميه من هذا الخطأ وتردده عنه.. هذه المزيتة المتمثلة  
في إيمانه بأن الذكاء الإنساني هو الذي يأخذ على عاتقه حل  
مشكلاتنا.. وها يردد - طاغور - إحدى أناشيد الضمير العذبة  
المضجعة ..

- .. إن الكمال شيء وراء طاقتنا، إنه يعني النهاية..  
ونحن أبدأ في سفرنا الطويل نحاول الاقتراب من غاية تبتعد عنا  
دوماً.. إننا على كثرة ما معنا من معرفة وخبرة، لانعرف عن  
أسرار الحياة إلا النزر اليسير.. "ومع هذا فإننا نملك القدرة على  
الإبداع والخلق، لأن فينا قيساً من روح الله، الخلاق العظيم".

\*\*\*

وللذكاء خطره ..

ومن ثمَّ فإن وضع الزمام في يده يزيد من التبعات الملقاة  
على الضمير، ويدعوه لمضاعمة يقظته وحراسته

وفي عصر العقل، تعرضت العلاقات بين الضمير والعقل

إلى توترات وأزمات كثيرة... بيد أنها في النهاية كانت ولا تزال تنتهي إلى وفاق رائع ومكين .

إن فترة الجيشان المرتفع في عصر العقل، كانت مظهرًا واصحاً لإرادة الصمير في تغيير وجه الحياة تغييراً تتحقق فيه وحلّله كل المبادئ التي نادى عبّر القرون بهذا التغيير، وصاغت بعض نماذجه ..

من أجل هذا، سرى الصمير الإنساني يحول تلك المبادئ والأحتياجات إلى قوات اجتماعية، وخذات مقاتلة مخوض المعارك لتحرز انتصارات نهائية ضد قوى التخلف والبلوى .  
وندور محاولات الصمير حول المعيار الذي اختاره ليصاق به بين الناس والحياة .

وكان هذا المعيار متمثلاً في الحرية، والعدل، لقد شهد عصر لعقل هذا في صُحاه المتمدن الجيَّاش... شهد جميع "الإنسانيات" التي أحررها الوعي الإنساني طوال الأحقاب والقرون، تنطلق في مهرجان حافل فتتصلق معها مقادير التطور وقواه من مكانها، وتُملاً حياة البشر بتغايريد المستقبل الواعد واتخذت هذه "الإنسانيات" من الحرية والعدل قاعدتها، ومنطقها وشرائنها .

فباسم الحرية والعدل، ستهب الطلائع الظاهرة لتتخلص من الإقطاع، ومن الاستعمار، ومن تجارة الرقيق ..  
وباسم الحرية والعدل، ستقوم الثورات من أجل حقوق الإنسان .

وستقرر حرية الضمير، وحرية الإرادة، وحرية الفكر، وحرية الاختيار .

وستتولى موجات الجيشان الذكي الواعي، فتقاوم سيطرة الاحتكار والثراء غير المشروع، وتدفع الحماهير الكادحة إلى مستوى كدحها وحقها، ونبزع الديمقراطية حامدة معها مشيئة الضمير في تكريم الجموع الإنسانية يجعلها مصدر الحكم، وصانعة الحياة .

وبصير احترام الشخصية البشرية وتقديس حقوقها وواجباتها، هو جُماع الخير وضرورة الفضيلة .

وسيكون للفلسفة بلاؤها العظيم، ودورها الجليل في التعبير عن مشيئة الضمير وإنجاز مهامه .

لقد أعنت الفلسفة أن الشؤون الإنسانية كلها هي موضوع الفكر الإنساني ومخني نشاطه ومادام الفكر هو الأداة، وهو الوسيلة، فلا ماص من أن تتوفر له الحرية لكافية لتكوين مادته،

والقاء كلمته

ولش كان "كوبشيسوس" قد قال قبل الميلاد خمسمائة عام  
 "إنى لأملك لك شيئاً، إذا كنت لاتستطيع أن تقول هذا  
 رأي". ، فإن الصمير فى عصر العقل خاصته يجعل من هذه  
 العبارة محجاً مقدساً، وهكذا، أيناه يدفع كل حكمة العصر إلى  
 دغم هذا الحق اجليل .

فليرفع "مونتين" صوته عالياً :

● - "علينا أن نفحص كل شيء، وألا ندخل عقولنا شيئاً  
 مجرد أنه عُرِفَ مُقرر ..

'عيب ألا يعتسق مبادئ أرسطو، أو الرواقيس، أو  
 الأبيقوريين دون أن يفحصها ونختار منها ..

إن من يتبع الآخرين بعير هدى من تفكيره واقتناعه لا يتبع  
 شيئاً، ولا يعثر على شيء ..

نحن نسا رعايا ملك، فدعوا كل واحد ما يطالب  
 بحريته .

إن الصدق واسطق حق لكل إنسان، وليساً ملكاً خالصاً  
 من ينطق بهما لأول مرة. إنما هما ملك لكس من يقدر  
 عليهما ..

إن النحل تختصُّ الشهد من هذه الزهرة ومن تلك، ثم  
تخرج من بطونها شرابها هي. وشهدا هي  
"ألا وإننا لجعل من عقل الإنسان شيئاً حسيماً وجباناً  
د. م. سمح له بحرية الابتكار والإبداع" !!!

\*\*\*

وإذا كانت الإراء النداء المضئنة لاتوجد عني قارعة  
الطريق، فلا بد بلبشرية أن تقرا كتسيرا، وتعرف كثيرا  
ممسولية البشر تجاه بناء حياتهم، لا يضاهيها سوى  
مسئوليتهم تجاه تزويد عقولهم بالمعرفة الصحيحة .  
وها يتحدث "برجسون" .

● - "يجب أن يتدب كل واحد منا كما بدأ الجنين  
البشري بذلك الطموح النبيل لمعرفة كل شيء. فهنا على  
وجه التحديد يكمن الفارق بين الفكر والغريزة... بين  
الإنسان والحيوان ..

"إن الحيوان يستطيع أن يفعل شيئاً واحداً بشكل يشبه  
إعجاباً، ولكنه لا يستطيع أن يصنع شيئاً آخر سواه"

\*\*\*



أجس... إن فقدان التنوع ليس مربية إلا لحياة السوائم وحدها، لأن الغريزة، لا العقل هي التي تقودها .  
 أما الإنسان، هذا الذي أعطاه الخالق الجليل عقلاً لا تشبهه عجائبه، فإنه مهما يمنح به التخصص إلى جانب من جوانب المعرفة يظل قديراً على أن يُدير نحو طره على كل شيء، ويصنع بعقله المعجزات ..

وإذا كان عصر العقل هذا، لن يدع حجراً من حجارة لأرض حتى يعرف فصيلته وعمره في التاريخ .. وإذا كان لن يدع بحراً، ولا نسهرًا دون أن يعرف نوع أسماكهِ وصحاليهِ.. وإذا كان لن يدع الفضاء سراً مجموعاً دون أن يعرف عدد نجومه، ويتعرف إلى سكان كواكبه... فإنه من باب أولى، لن يدع أفكاره وآراءه، وعقائده تُعلَى عليه، ولن يدع حقه في تكوين اقتناعه، والبحث عن الحقيقة يخضع لأي تأثير.

وهكذا، وفي القرن السابع عشر، تصبح كلمات "ملئون" على كل لسان .

● - أطلقوا رياح جميع العقائد والأفكار لتغدو عبي وجه الأرض، ولتكن الحقيقة سهماً في المعركة؛ فإننا إذا حظربا لها، وتحكما فيها برنكب إنما نصنع أذى كبيراً

"دعوها تتصارع مع الكذب.. فهل رأى أحدكم الحقيقة يوماً قد خسرت قضبتها في صراع حُرٍّ مكشوف؟!..

\*\*\*

إن الصمير يُجند كل الذكاء يومذاك لكي يحرر الفكر من كل سيطرة ووصاية. لاسيما وصاية الكنيسة التي كان لها على العقل سلطان باطش

إنه يرفع لواء حرية الفكر، وحرية القول، لأنه بهذا سينهب المركب البشري إلى غايته البعيدة في خطو ثابت ظافر وإنه ليريد ألا يعتمد رأى ما على القهر والتحدى؛ لأن كل فكرة وكل عقيدة تعتمد في إثبات وجودها على القهر والإرغام، وبإسها تحكم على نفسها بأن حطها من العقل، ومن الصواب صئيل، بل مفقود.

ثم إن حرية الضمير التي تتمثل في أن تكون هناك حُرُمات مصنوعة لحق الاختيار، وحق الاقتناع، هذه الحرية تُصحى هباءً حين يكون ثمت نُظم أو عقائد تُصير على أن تفرص نفوذها قسراً وإكراها.

وهكذا يجيء "جيفرسون" ليقول :

● - "عندما منح الله آدم العقل، أعطاه الحرية ليختار؛ لأن

العقل هو الاختيار.

إن الحقيقة والإدراك، ليستا سلعتين نخضعان للاحتكار  
وتورعان بالبطاقات

"ألا فأعطي جميع حرياتى غير مقوضة، ولكن أعطي حرية  
الصمير أولاً.."

"ألاً واعلموا أبني عاهدتُ الله الكبير على أن أعادى إلى  
الأبد كل صورة من صُور الاستبداد يعقول الناس  
وضمائرهم..!!"

\*\*\*

ويرتفع صوت "هولثير" ..

ـ "إن ابلى يقول لك اليوم: اعتقد ما أعتقد، وإلاً لعنك  
الله. سيقول لك غداً اعتقد ما أعتقد؛ وإلاً قتلُك .

وبن يسودّ سلام على الأرض قبل أن يتعلم البشر كيف  
يتسامحون، بعضهم تجاه بعض في كل خلافاتهم السياسية،  
والفلسفية، والدينية ..!!"

\*\*\*

لقد عبّر عشرات من افلاسفة والمفكرين في تلك الأيام عن  
تصميم الصمير على أن يُحجى عن الإرادة الإنسانية والفكر

الإنسان كل الصواعظ التي تُحتسب رؤاها وتعتاق سيرها.  
وأفضى ذلك إلى التصادم مع قوى كثيرة كانت تُهبط  
كاهل الإرادة والمكر . وثُمَّ الفوز للضمير في جميع المعارك .  
أما سيطرة الكهوت، فقد تقلصت، وتقرر حق الإنسان في  
أن يختار دينه ومذهبه .

وأما سيطرة الأباطرة والمستبدن، فقد رفع الضمير في  
وجهها حق الجماهير، وناداهما إلى موعدها مع الحياة .  
ولقد بدأ الضمير عمله الثوري من أجل الخمسوع الهائلة  
المعلوبة على أمرها باختيار المفكر الذي سيضع ثورات التحرير  
السياسي فيها ومُطَقِّها العلاب .  
وكان "روسو" ...

كان مؤلف "العقد الاجتماعي" ..

كذلك اختار الرجل الذي سيضع لتلك الثورات أساسها  
المحركة المجلجلة .

كان "توم بين"، مؤلف "المهم" و "حقوق الإنسان" ..

\*\*\*

وبعد تحدث "روسو" صويلا، وكان عقلا بارعا وهو يُحول  
حرية الإنسان إلى فقه وقانون - ها هو ذا يتحدث .

● - "إذا بحثنا عن القاعدة التي يتحقق بها كل الخير لكل  
الناس، والتي يجب أن تستمد منها كل القوانين، أبعيننا هذه  
القاعدة تكون من أمرين مقدسين: الحرية، والمساواة ..  
"الحرية، لأن كل تبعية خاصة، لا تعني نقصاً في نفوذ من  
سلبت حريته فحسب، بل نقصاً في نفوذ الدولة نفسها ..  
"والمساواة، لأنه لا وجود للحرية بدونها ..  
"وأنا أعرف الحرية بأنها الحقيقة التي تجعل الإنسان سيد  
نفسه في ظل القوانين العادلة التي يضعها الناس بأنفسهم  
لأنفسهم ..

"والمساواة ليست هي الشيء الذي يجعل الناس سواء في  
درجات السلطة والثراء - بل هي ألا تجاوز السلطة حدود العدل  
فتظلم ، أو تخطي القوانين فتستبد .  
"وهي أيضاً، ألا تكون هناك قلة تملك من الثراء ما تستطيع  
أن تشتري به مواطنين، كل ذنبهم أنهم خلقوا فقراء .."

\*\*\*

والحرية أكثر قداسة من أن تكون مجرد حق شخصي .  
ومن ثم فهي ليست ممتنعة عن إرادة سببها فحسب، بل  
وممتنعة عن إرادة التنازل عنها أيضاً .

ولا يستطيع إنسان ما أن يتنازل عن حريته طائعاً .  
وفي هذا يقول "روسو" أو يقول الضمير الإنساني على لسان  
روسو

● - "إن تنازل الإنسان عن حريته، يعني تنازله عن صفة  
الإنسان فيه .. ويعني تنازله عن كل ما له من حق، وما عليه من  
واجب ..

"وتنازل كهذا يفقد صاحبه الحق في أي تعويض .  
"وتنازل كهذا يناقض كل طبيعة الإنسان  
"ونسزع الحرية، من إرادة الإنسان يعني نسزع كل فضيلة  
من أعماله ..

وبه نعهد باطل، كل عهد يميز قيام سلطان مطلق من  
ناحية، وطاعة لاحد لها من ناحية أخرى "

\*\*\*

وهذه القاعدة المتمثلة في الحرية والمساواة لا يترك مصيرها  
للأريحية، أو الهوى، بل يجب أن يتنظمها عهد ويحميها القانون  
والعهد الذي تشترك فيه الحكومة والشعب، لا يعطى  
الحكومة أي امتياز يجعلها فوق الأمة أو فوق القانون .  
والآن، مع "روسو" مرة أخرى .

● - "إن كل عهد سيادة - أعني العقد الذي أئتمرته الإرادة العامة للشعب، ليس عقدًا بين الأعلى والأدنى .. بل هو عقد بين أطراف متكافئة، لأن الإرادة العامة لكل المواضع، هي التي صاغته والتزمته".

\*\*\*

والقوانين يسها الشعب بأجمعه عن طريق ممثليه المختارين واقتراعه الحر - وبذلك يتوفر لها الصلاح والتوقي.

● - "إن جميع الشعب إذا سن القوانين من أجل جميع الشعب، لم ينظر حينئذ إلا إلى نفسه ومصالحته .  
"وما دام غرض لقانون عام، فلا ينبغي أن يكون واضعه فردا، ولا أن تكون غايته شخصية .  
"وليس معنى هذا أن القانون الذي يصعه الشعب لن يعترف بوجود امتيازات.

"كلا- ستكون هناك امتيازات.. ولكن لن ينعم بها على شخص باسمه، ولا على طبقة بذويها"

\*\*\*

هكذا تحدث "روسو".

والقوانين التي تسلم من مثل هذا العهد، والتي يصعها ممثلون

مختارون من الشعب لها قداسة تجعل تخطيها المحرمة لها عملاً خطيئياً لعواقب، ولكي تظل سيادة القانون قائمة ينادي "روسو" بضرورة الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية.

■ - "لا ينبغي لمن يحكم، أن يضع القانون . ولا ينبغي لوضع القانون أن يكون هو الحاكم.. فإذا صارت السلطة تنفيذية وتشريعية معاً، يصبح القانون في خدمة الهوى، وليس في خدمة المصلحة العامة ..

"إن روما وهي في أروع عصورها شهدت انقراض كل عواقب الطغيان عليها، واستسلمت في عجز لقوى الإبادة والتخريب، وذلك لجمعها السلطة التشريعية والتنفيذية في بضع أيدي حاكمة -".

\*\*\*

ويرى "روسو" أن الحكومة والشعب يحتاجان إلى وظيفة سياسية لها خطرها وفائدتها. ويسمّيها "المحامية عن الشعب" ويعني بها - "المعارضة" التي يشترط أن تكون نزيهة وأمية، وألا تجعل اقتناص الحكم غرض حياتها أبداً.. لأنها إذا أدركت خلال مسعاها علمت أنها أعظم من الحكومة !!

بل إن "روسو" ليبالغ في فرض التبتل على المعارضة فيعلن



أنها لاحق لها في الحكم ، ولا في سن القوانين..!!  
ما عملها إذن ؟..

إنها حارس البرج . إنها الديدبان الذي يهاجم  
الأخطاء وينادي الحكومة والشعب إلى واجباتهما .  
ها هو ذا "روسو" يقول :

● - .. وليس - الحماية عن الشعب - فسيما مكرسا  
للمدينة، أو الدولة - :ولا ينبغي أن يكون لها نصيب في السلطة  
التشريعية، أو في السلطة التنفيذية، ومع هذا، فإنها صاحبة  
سلطان عظيم، وسلطانها لا يتمثل في الفعل، وإنما يتمثل في  
المنع، فهي قادرة على منع كل خطأ. وهي كمدافعة عن القوانين  
تعتبر أقدس وأجل من الأمير ومن الحكومة معا"!!..

\*\*\*

ويعصى "روسو" في تعبيره عن مشيئة الضمير الإنساني  
واضعا تصميم الحريات السياسية والحكومات الصالحة،  
 واجتماعات القوية.

ولئن كانت أفكاره قد خضع بعضها فيما بعد لتعديلات  
كثيرة وضرورية، إلا أن جوهر تلك الأفكار عاش وسيظل ناصع  
الحجة باقي الصواب.

ويدوى صوت "توم بين" مبلغاً إرادة الحياة.

● - وإد كان للحياة الإنسانية أى معنى فهو هناك - في  
كرامة الكائن البشرى

● - "والآن يامس، يا مس تحول احسن البشرى،  
اسهصوا.

إن الصعظ والاصطهاد لبعضهم بكل نقاع العالم  
القديم

إن الحرية تُطارَدُ حول الكرة الأرضية كلها، فهيا استقبلوا  
العريضة اللاحقة ؟؟؟

أى معنى للحياة الإنسانية إد، إذا صارت حرية صريضة  
ولاحقة ؟؟؟

ألا تصبح كل الحياة وكل أحيائها الأناسى في خطر  
وبيل..؟

لا بد إدن من مواجهة حاسمة

لا بد أن تُدعى كل القلاع العتيقة المزينة و عداوتها  
للحرية، لا بد من أن تُدعى بكلمة الصمير.. وتفسح الطريق  
للعالم الجديد المقبل

أرافصة هي أن تُدعى .

أمصممة هي على البقاء وقد مات أوائها، وجاء أجلها...؟،  
فلتدق إدن وبأل أمرها ..

وهكذا، ومع هذه الرياح الصادحة، سهضت الثورتان  
الكبيرتان - ثورة الحرية في أمريكا.. وثورة حقوق الإنسان في  
فرنسا - وهبت بعدهما ثورات التحرير في كل مكان...!!  
● - 'لو تأكد لي أن تسعمائة وتسعين أمريكياً من كل  
ألف سيهلكون في - "الحرب من أجل الحرية" لأعطيت صوتي  
لخوض تلك الحرب؛ إن ذلك أفضل لذى من أن أرى بلادى  
مستعبدة ..

ولاني لأعلم أن الدين سيعيشون بعد هذه الحرب - وإن  
يكوبوا قلة - ستونذ منهم أمة الأحرار " 111...  
هكذا تحدث "آدمز" أحد زعماء ثورة الاستقلال في أمريكا.  
وتمثلت في كلماته هذه الخطة التي أثرها الضمير يومذاك:  
- "الحرب من أجل الحرية" 11..  
الحرب التي تُلد أحداثها عالماً من الأحرار..!!  
لقد كانت هذه الكلمات شعار تلك الأيام: وشعار العصر  
الذي أهلت معه عصور الحرية جميعاً. الشعار الذي سيدعو كل  
أمة أن تحارب من أجل حريتها .

ولكن ، أو لم يكن ثمت سبيل لإدراك الحرية غير سبيل

القتال .. ؟

وأين دعوة الضمير الإنساني للمحبة وحرصه على

السلام .. ؟

في تلك العصور البعيدة لم يكن ثمت سبيل للحرية بغير

القتال .

وكل قتال تفرضه الأحداث للدفاع عن حقوق الحياة، فهو

عملية جراحية لا بد منها لكي تدوم للسلام عافيته ونموه.

والضمير، حين أثار الشعوب ضد الجائمين فوق مقاديرها

وانستبدلين بمصايرها، كان يدرك أن المعارك ستبلغ من الضراوة

مذاها .. ومع هذا، فما كان ثمت سبيل أخرى لإوصل المجموع

التائهة بمستقبلها ..

ها هو ذا - توم بين - يعبر عن موقف الضمير الإنساني تجاه

مبدأ "الحرب من أجل الحرية" ، فيقول :

● - "أنا أكره الحرب ..

"إنها أسوأ الطرق لإبقاء الإنسان في هاوية المهانة،

ولجعلله وحشاً ضاراً ..

"ولست أكره شيئاً على الأرض، مثل كراهيتي للحرب ..

وإن جميع كنوز العالم فيما نُعتقد، ليس في استطاعتها أن  
تعري بتأييد حرب عدوانية؛ لأني أرى ذلك قتلاً وإرهاق  
أرواح .

"ولكن، إذا اقتحم لص بيتي، وأحرق أو أتلّف ممتلكاتي  
وهدد حياتي، ثم صوّقتني بإرادته المطلقة، فهل يُطلب مني أن  
أصدّع بأمره ؟؟..  
"كلا .."

\*\*\*

تلك هي القصة إذن . إذا اقتحم لص بيتك وعات فيّه  
فساداً، ووضع عنقك تحت حدّ جِحره أو فوهة مسدسه، فلا  
مفر من أن تنهض على قدميك، وتقاتل كرجُل.

ولقد كان الاستعمار هو اللص الذي يقتحم الأوطان .

وكان الصعيان ، هو اللص الذي يقتحم الأرواح

ولم يكن من المقاومة بُدّ .

ولم تكن تلك المقاومة لحساب جيل من الناس، أو أمة من

الأمم .. بل كانت لحساب المصير الإنساني كله .

● - إن هذا لنا جميعاً.. ولأولادنا من بعدهم . فحين

الطلبة . وليس ما تنهض به اليوم سوى بساء عالم جديد "

هكذا قال "توم بين" ..

\*\*\*

وهكذا شرع الصمير الإنساني بيني العالم الجديد

وصحا أحرار القلوب في كل مكان .

وأخذت أبراح الحرية تتبادل الإشارات المضيفة.

والتقت الرؤى بالحقائق في كذح بيل، ومضطرات حايلة.

وتنادت الشعوب المقهورة، واجموع المستعبدة ..

- "هيا يارجال، إن هذا لنا جميعاً ولأبنائنا من بعدنا -"

والتقى الجمعان ..

الجمع الذي يحمل من المستقبل تفويصاً ليتحدث باسمه

ويعصر بمساعدته .

والجمع الذي جعلتهم ظروفهم التبعة مدنة لهما كل كل

السخلف وأطلال التسلط .

وقامت الثورات، لامعة حقوق مواطنيها وحسب .. بل

حقوق الإنسان جميعاً، وحق الناس كلهم في السعادة والحرية

والكرامة .

قامت ثورة الاستقلال في الولايات المتحدة.

وثورة حقوق الإنسان في فرنسا.

وثورات أوروبا والأرضي المخفصة ..

وبعد حين، يجيء ماركس، فيضع مع صاحبه أنجز ميشاق  
ثورة كبرى من طراز جديد تندلع حين يجيء ميقاتها في روسيا  
القيصرية لتبنى فوق أنقاضها "اتحاد السوفيت" ..

ويظهر في الشرق "عصار مبارك" يسر الثورة في كل  
مكان وتتحول أنفاسه الحارة إلى عواصف وبراكين، ويست في  
وعى الجماهير ألغامه الموقرة التي ستفجر في حينها المختوم .  
ذلكم هو "جمال الدين الأفغانى" رجل من أكفأ الثور،  
وأكثرهم مضاء واقتدراً !!

\*\*\*

ولقد كان من الطبيعي أن يكون لأكثر تلك الثورات  
أخطاؤها وإسرافها، بيد أن العرض التاريخى الذى أسهمت  
جميعها في إنجازها كان عظيماً بقدر ما كان ضرورياً .

\*\*\*

والآن، لنقف طويلاً مع تلك الحقبة المباركة السى حشد  
الضمير الإنسانى خلالها كل رشده وعزمه ليضع حتماً حداً  
لأساة الرقيق :

إنسان يشتري إنساناً آخر مثله.. يدفع فيه قدراً من المال

لتاجر شقى يسرق الناس لبيعهم، أو يشتريهم من آخرين في مثل  
شِقْوَتِهِ. ؟؟

وتبلغ المأساة دروة بشاعتها، أو قولوا سمح البشاعة  
وحضيصها، حين تمن لقوانين الدولية التي تنظم تجارة الرقيق،  
وتجعل منها عملا مشروعاً!!.. وحين تصير لبعض الملوك  
والملكات في أوروبا "أساطيل بحرية" تعمل في خدمة تجارة الرقيق  
لقاء أجور مرتفعة وأرباح طائلة!!..

أى التحذار للبشرية..؟

وأين عزم الصمير لإساقى..؟؟

إن محاولاته النيلة عبر القرون المديدة تجد آخر الأمر ختامها  
الحائل والحاسم .

وسيمثل ذلك أولاً في إحدى روائع الفكر الإنساني.

وسيمثل ثانياً في - الحرب من أجل الحرية" فتقوم حرب  
أهلية من أجل الرقيق في بلاد سيبقى لها شرف هذا العمل  
الجليل.

أما الفكر الذى سيختاره الصمير هذه المرة لإبلاغ كلمته  
- فصاحبه سيده.. تعالوا ننحز في إجلال قبل أن نطق اسمها ..  
إسها هرييت بيشرستاو" ..



إنها مؤنفة "كوخ العم توم" ١١٠٠

إليها ستتحدث.. وسيوحى الصمير إليها بكل تجربته  
المضنية مع هذا الوباء ليشعل بكنماتها النار المقدسة في كسل  
قلب بشرى، حتى يظهر الأرض من شرّ أوراره وخطاياها ..  
سوف تضع السيدة "ستاو" على السنة أبطال قصتها كل  
وقائع المأساة البشعة ... مأساة الرنى في كل عصوره ومراراته،  
وسترسم الخلاص الوديع الطيب .

والآن، إلى أبطال كوخ العم توم لتسمع من حوارهم وثيقة  
من أبلغ وثائق الضمير الإنساني .

● - " أنا أعلم يا جورج أنك مارلت متحسراً على عملك  
بذى فمدته، كما أعلم أن لك سيداً فاسياً لاتعرف الرحمة إلى  
قلبه سبيلاً، ومع هذا فلا بد من أن تصير ..

- "أصبر..؟؟ تقولين. أصبر. ؟؟ ألم أك صابراً طوال هسدا

الشقاء ..؟

"بلى، كنت صابراً يا جورج، وإنه لأمر فضيع . ولكن  
الرجل على أية حال سيدك "

- "تقولين سيّدى..؟! ومن اندى جعله سيّدى . ؟! ذلك

ما يقصّ مضجعى ..! أى حق له علىّ ؟ أنا إنسان بقدر ما هو

إنسان، بل أنا إنسان خير منه؛ فأنا أعلم منه بالتجارة، وبالقراءة،  
والكتابة. ولقد تعلمت ذلك كله بنفسى، ولم يكن له أى فضل  
علىّ في هذا. بل لقد تعلمت على الرغم منه. والآن فبأى حق  
يُتزعى من عملى، ويجعلنى على القيام بأعمال يستطيع أى -  
حصان - أن يقوم بها "؟.!

ويفاجأ - توم - . . يبيع سيده له ليقضى بثمانه ديوناً آخذة  
بخطاه ..

ولكن، كيف يُباع توم، وقد صار حراً من تاريخ هذا  
ابيت وهذه العائلة، وهذه الولاية ؟..  
وتقول له زوجته :

● - "على أية حال يانوم، فأنا لا أستطيع ألا ألوم السيد  
على بيعه إياك" ..  
ويجيبها توم ..

- "دا كنت تحببى حقاً، فلا تذكرى "السيد" بسوء.. ألم  
أحمله على صدرى وهو طفل صغير..؟؟" هذا هو وفاء وحُبُّ  
وأدبُ الذين كتب عليهم أن يكونوا رقيقاً وعبيداً !!..!

أهناك ما يُصور عظمتهم المخوذة مثل هذه العبارة التى  
كشفت بها السيدة "سار" نفسية توم للممثلة بسهاء ووفاء

## وعظمة..؟

ولكن "توم" يُصَفَّدُ بالأغلال تهيئةً لِشَحْنِهِ فِي رَكاب  
سيده الجديد، وتقف زوجته وطفلاه ينتحبون  
وإذ هو مع سيده في الطريق، يميل به السيد ليعقد صفقة  
أخرى كان على مَوَعْدِ معها .

وكانت الصفقة طفلاً، ولا يكاد التاجر يمد إليه يده بالحيال  
ليربطه حتى تنهاوى فوقه أمه الواهة، وهي تتضرع إلى التاجر  
لا من أجل أن يترك لها ولدها، فذاك شيء بعيد المنال.. بل من  
أجل يربطها بنفس الحبال التي يربطه بها حتى لا يفرق بينها  
وبين فلذة كبدها..!!

● - "ضعف نحن الاثنين معاً . صنعنا معاً من فضلك أيها  
السيد.. أتوسل إليك، إنه طفلي الأحير الذي بقي لي من الحياة"..  
ولا يملك توم إلا أن يركى.

إن حياة الرقيق إذا سميت من باب المغالطة "حياة" . هي من  
الشؤم بحيث يصعب وُصْفُها.

لكن مؤلفة "كوح العم توم" استطاعت أن ترسم على السنة  
أبطاها مشاهد مبكية ومفجعة لهذه الحياة، بل إنها تؤكد أن  
دورها لم يزد على تسجيل ما كانت ترى وما كانت تسمع في

دنيا الرقيق .

لقد استطاعت في إحلاص وبراءة أن تُقَلِّق ضمائر الناس  
بتلك الملامح التي رسمتها المأساة .

لقد كان "الضياع" هو المرادف الصحيح لكلمة "حياة"  
بالسببة للرفيق .

ها هي ذى السيدة "أوفيليا" تسأل الأمة "توبسى" عَنْ  
عُمُرِهَا.

وتجيب : "توبسى" .

- "لست أدري ياسيدتى ..

- "ومن هي أمك ؟؟

- "لست أدري أيضاً . لم تكن لي أم في يوم من الأيام ..!!

- "لم يكن لك أم ..؟ عجباً، أين ولدت يافتاتى ؟..

- "لست أدري ياسيدتى .. أنا لم أُولَدْ في يوم من الأيام !!

ومُلَمَّح آخر من ملامح الصباغ الفاسى الذى كتب على  
أولئك المساكين، ترسمه الكاتبة على لسان "كاسى" .

● - "لَسْنَا نَعْرِفُ سَبِيلاً سِوَى الْقَمَرِ" .

"إن أحقر الحيوانات والطيور لتجد لها مسكناً ومأوى ..

حتى الحيات والتماسيح لها جُحُورُهَا، وأوطانها التي تستقرُّ فيها

وتهدأ ..

"أما نحن، فمآلنا من مأوى!!

"وحتى حين نهرب منهم إلى المستنقعات، تتعقبنا

كلابهم، لنتهشنا ونمزقنا ..

"كل شيء صدنا، حتى حيواناتهم عدو لنا...؟ إلى أين

نذهب"؟..!

\*\*\*

ولقد دوخ هذا الضياع عقولهم وضمايرهم وملأها يأساً

وحقداً وفقدوا الأمل في ثواب الآخرة وفي عدالة الدنيا .

ها هو ذا "توم" يُواسي إحدى الصحايا قاتلاً :

● \_ ألا تعلمين أن يسوع سيبسط إليك يده عوناً، وأن

مَثَوَاك الجنة، والراحة الأبدية ؟؟..

فتجيبه في حَزَرٍ أليم :

● \_ لستُ أريد الذهاب إلى الجنة !! أليست هي المكان

الذي سيذهب إليه دُورُ البَشَرَةِ البِضَاءِ...؟، إلى لأفصل الجحيم

على الجنة ما دمت سأجد في الجنة سيدي، وسيدتي "!!.. والآن،

ماذا كان موقف الرقيق المعذب من مكبتهم هذه...؟

إن بعضهم يقضم أسنانه من العيظ ويبحث عمن قرص

الانتقام .

وبعضهم يغفر، ولكنه يحتفظ بحقه في القصاص أممهم أى  
عدوان جديد .

وبعضهم يلوذ بالصمير ، وبالحُب ..

● - أما الفريق الأول فترسم المؤلفة صورته في مشهد للأمة  
المعدبة التعسة "كاسى" حيث تنأهب لاعتصان سيدها المظ  
المترحش، فتسقيه من الحمر حتى يعمد وعيه، وتخبئ فأساً لتهشم  
بها رأسه المثقل بالقسوة، وفي هـ.هـ.هـ. الليل تنادى في همس  
خفيض.

- "توم..توم، ألا تريد أن تنعم بحريتك ؟..

- "هيا الآن ياثوم، إن باب غرفته لمشرع.

'حد الفأس و سحق بها رأسه؛ فإن ذراعى ضعيفتان..!'

\*\*\*

- أما الفريق الثانى، فيتبدى في موقف "جورج" ذلك العبد  
المطارَد الذى لا يريد من الدنيا إلا أن تتركه وشأه دون أن يـرزأه  
ناسها من جديد ..

● - "إنى لن أهاجم أحدا... لكنى كدلك لن أقف موقف

المتفرح وأنا أنظر روحتى تُساق بين يدى النخّاس لثباع في

الأسواق ..

"إن الله أعطانى دراعين قويتين للدفاع عنها وحماتهما"  
 "فليساعدنى الله.. إلى سأقاتل حتى الرُمق الأخير قبل أن  
 ينتزعوا منى روحنى وولدى، فهل أنا فى ذلك مَلُوم"!!..!!  
 لا يا جورح.. لست أبداً بملُوم!!..!!

\*\*\*

● - أما الفريق الثالث الذى يؤثر الصمير ويؤمن بأن قضيتَه  
 العادلة ستجد موزها فى المحمة. وانتظار رحمة الله، فمثله فى القصة  
 هو - "توم"

فعندما دعنه 'كاسى' ليسحق بالفأس رأس سيده "ليكرى"  
 وهو يعطُ فى يومه رفض "توم" أن يصنع.. رفض فى وقت كان  
 جسده فيه لا يزال مُتقيحاً من أثر التعذيب الوحشى الذى  
 أنزله به "ليكرى" هذا ..

وأجاب "كاسى" قائلاً :

"لا.. لا يا كاسى، لن ألوث يدى بالدم، ولو أعطيتُ الدنيا  
 بأكسها"!!!

وترد عليه "كاسى" قائلة.

- "ولكن فكر ياتوم فى هذه المخلوقات البشرية التى قد تُوفق

في تحريرها جميعا من وحشية هذا السيد - ليكرى - ..  
ويُحييها توم:

"لا.. لا.. إن الخير لا يحيى أبداً من الشر!!، إذا استطعت  
فاهربي من غير إراقة دم"!!..

\*\*\*

ومادا كان موقف الصفوة والسادة من هذه المأساة؟  
إن المؤلفة تختار واحداً منهم في ضميره حياصة؛ فيفصح  
دخائل هؤلاء السادة ويعلن رأيه في جرثة الرق.. إنه في التصفة  
السيد "سانت كلار".

- "أتريدون يا أوفيليا أن تعرفي حقيقة رأيي في الرق؟  
"إن امزارعين الذين يفيدون من هذا الطام، ورجال الدين،  
الذين يتحملون هؤلاء المزارعين ..

"والسياسيون الذين يتصنعون تجاهل الرق كجرمة، لكسي  
تبقى لهم مناصبهم .

'هؤلاء جميعاً، يملكون من الحق ما يستطيعون به تحريف  
الحقيقة والأخلاق.. بيد أنهم في فرارة أنفسهم يعلمون كم  
هم كادبون!!..

'إن نظام الاسترقاق رجس من عمل الشيطان، وإنه ليمثل



نموذجاً بارعاً لما يستطيع الشيطان أن يصنعه في مجال اختصاصه...!!!"

\*\*\*

لا بديل للحرية.. وليس في نعيم الدنيا كله ما يصلح أن يكون ثمناً لها، أو عوضاً عنها .

تلك هي الحقيقة التي حق على الناس - جميع الناس - أن يدركوها .

وإن "توم" ليحليها أروع جلاء في حوارهِ مع سيده الذي يمن عليه قائلاً :

\* - "سوف أجعل منك رجلاً حراً ياتوم !!..

- "شكراً للرب ياسيدي .

- "ألا ترى ياتوم أنك عشت عندنا حياة أفضل من حياة

الحرية ..؟؟

- "كلا ، أيها السيد، كلا ..

- "هل كنت ياتوم قادراً بحريتك أن تلبس ما كنا نكسوك،

وننعم ما كنا نطعمك؟

- "هذا صحيح ياسيدي، ولكني أؤثر أن تكون لي ثياب

حقيرة، وبيت حقير، وأنا أقول: هذه الأشياء لي... على أن ألتحق

بخير من دلت كله مما يملكه، ويملكني معه رجل آخر اسمه -  
سیدی - "!!..!!

\* \* \*

وبعد، فهذه المأساة آيان مرساها ؟

كيف ستجد حلها ومصيرها..؟

لنمض مع المؤلفة :

ها هو دا "توم" يعاني آلامه المبرحة التي أصابه بها تعذيب  
بالغ الوحشية، أسرله بجسده الظاهر الرهسان سوط سيده  
"ليكرى". هذا السيد الذي رفض "توم" أن يعتاله وانقرصة  
موتية . هذا السيد الذي أجل قصائمه - الندة.. وأهون ردائله  
الوحشية !!..!!

هاهو دا العم "توم" ابوديع، الطيب، المؤمن، الإنسان، يُعالج  
سكرات الموت في هدوء وصبر .

وبينما يتهايا جفناه لُسيلا في الأبد، ذا شاب مُهتد، قد  
جاء يركض بجواده.. جاء من بلد بعيد يبحث عن "توم" الذي  
طالما حمله على صدره وليداً، وطفلاً ..

ويتهاكك الفتى على الجثمان المختضر المودع، وهو يصرح:

- "توم . توم، لائمت يا توم . !!

"لقد جئتُ لأحرِّرك، وأعود بك إلى كُوبِجك القديم.

توم توم لا تَمُت . سأشتريك يا توم."!!

ويجيب "توم" بأخر كلماته في مثل هُمنس القديسين.

● - "شكراً لك..، لقد جئتُ متأخراً يا ولدي..

"إن الرب قد اشتراكي" !!!..

\*\*\*

أجل، إن الله قد اشتراه، واشترى معه جميع الرقيق..

ولسوف يُبارك الله الضمير الإنساني في ضربته الماحقة التي

سَيَسْزِلُهَا بِالْمُجْرِمِينَ حُمَاةَ الرِّقِ وَتُجَاهِرُهُ ..

وإذا لم يكن من الحرب بُدٌّ، فلتكن الحرب.

ويُزَع من بين صفوف البشرية ذات يوم - وبعد ظُهور

قصة "كوخ العم توم" يَبْضَع سنوات - رجل كضياء الفجر،

يَحْكِي بِهَاءِ الصَّدَقِ وَصَمُودَ الْحَقِّ.. ويعقد بِسْمِ اللَّهِ الصَّفْقَةَ

امسركة التي سَيُحَرِّرُ بِهَا جَمِيعَ الْأَرْقَاءِ.

هذه الصَّفْقَةُ التي تَنبَأُ بِهَا "توم" وَرُوحُهُ تَفِيضُ وَتَصْعَدُ

إِلَى بَارِئِهَا قَائِلًا: - "إن الرب قد اشتراكي" ..

وكان "إبراهيم لنكولن". هو ذاك المَحرَّر العَظِيم .

\*\*\*

هكذا كان عصر العقل، عصر الإنسان، ففيه تحررت المعرفة من كل معوقاتهما، ونمت نمواً سريعاً وهائلاً، وبدأت تعمروا في توفيق عظيم كل المجهول.

ليس ذلك فحسب.. بل وإن ذلك تم ويتم لحساب التقدم الإنساني والمصير الإنساني.

فقوى الذهن وطاقات الفكر جميعها مسخرات لكشف مصادر مستمرة للثراء الإنساني بكل صنوفه المادية، والعلمية، والروحية..

والضمير يقظ لكل التناقضات التي تصاحب زحف التقدم الحديث.

وهو في موازنة مستمرة بين قوى الجذب والدفع في هذا التقدم المطرد.

فمع ثورات التحرير في بلاياتها، ركز الضمير على حق الفرد تركيزاً أميناً، ووضع كل النظم والقوانين في خدمة الحرية الفردية.. ذلك أن البشرية كانت ترزخ تحت سيطرة طغيان متعدد الأزياء دغدغ كثيراً من صلابتها، وأذاب كثيراً من شخصيتها، فلم يكن للحرية معنى حين جاءت، لو أنها تحطت الوحدة الأولى في البناء البشري، متمثلة في الفرد.

ولكن حين يتقدم العهد، ويتحول مبدأ الحرية الفردية في  
أيدي أساتذة الدهاء والمغامرة إلى امسيار خاص تُنعم به قلة من  
المحتكرين والحاكمين، يُلقى الصمير بثقله في الحجاب الآخر،  
فيسارع الفكر إلى تلبية مدائه، ويعيد التوازن إلى القيم المضطربة.  
بيست الحرية، أن تُنخَم قلةً بمجوع الكثرة ..

ولست أن تمثلي السماء بدخان المصانع مُكففةً به أنفاس  
الكادحين، وعافيتهم، وأرواحهم .. !!

وليست أن تعود تحارة الرقيق في أرياء تنكّرة، ويسـبطـر  
سادة المال وأرباب المصانع والأرض على حركة الحياة  
بيست الحرية شيئاً من ذلك. وإذا انزقت قوى الشر  
بها نحو هذه المهاوى، فلا بد إذن من مثير جديد .

ويجيء الندير .. موكب من دعاة الاشتراكية تنتهي أمثله  
وأحلامه عند "ماركس" الذي يحوّل الأمان إلى حقوق، والأحلام  
إلى فلسفة ونظام

نقد اكتشف - ماركس - المطلق لتاريخي، الذي يجعل  
الاشتراكية ميفاتاً وموعداً في مسار البشر ورخنة الحياة . وصاغ  
فلسفته المقاتلة التي حققت عرصها التاريخي، فقدمت بالكداحين  
إلى مكابهم الحق في الصفوف الأمامية، وهزت الأوضاع

الاقتصادية في العالم كله هزأت هائلة أسفطت عنها الكثير من  
خبيثها وأنانيتها، ووضعت الاشتراكية كفلسفة، ونظام، وحركة -  
في مكانها من الحياة الإنسانية .

بيد أنها خلال صياغتها كفلسفة، وخلال إنجازها كنظام  
وتطبيق تكشفت حاجتها الملحة إلى إعادة النظر في موقفها من  
الروح الإنساني الذي تُعسّاهلت احتياجاته، أو لم تتجاهلها  
ولكنها أدخلتها كوحدة حسابية في عمليات الإنتاج، والتوزيع،  
وفائض القيمة !!..

وهكذا صارت للماركسية التي جاءت - يوم جاءت -  
كنذير للذين اتخذوا من حقوق الإنسان صفقة يقامرون بها في  
سبيل جشعهم الويل.. نقول صارت "الماركسية" تلو  
وكانها بحاجة إلى نذير يُصَحِّحُ موقفها من حريسة الفكر،  
والقول، والضمير !!...

والضمير الإنساني كشأنه دائماً لا يدعُ السسبغات تلتهم  
الحسنات، والأخطاء تأكل المزايا.. ومن ثم فقد أرسل ألبستته  
المفكرة في كل مكان تعيد إلى حرية الضمير والتفكير والإرادة  
قداساتها، وتشير إلى الآفاق الجديدة التي ستعثر بها المسألة  
الإنسانية كلها على تكاملها. فلا يتحقق العدل في غياب

الحرية.. ولا تتحقق الحرية في غياب العدل . بل تتشكل منهُما معاً، وعلى أوسع الآمال وأحفلها بالتوفيق . جميع الحياة الساجدة لبني الإنسان .

ويواصل الصمير دعم حقوق الإنسان، فيُتابع خوض المارك مع الطاعوت الذي تُجر تحت قدميه إرادة الحياة.. ذلكم هو الاستعمار.

إنه الابن الشرعي لقوى الاحتكار والاستغلال؛ ومن ثمّ فهو يحجبها ويبدل جهوده المستميتة ليُطيل بقاءها

وهو الذي في سبيل بحثه عن الأسواق وامتلاكه منابع الثروات يشرّ الحروب الظالمة والفاثكة ويحتجز حريات الشعوب.

وهو إذ يستمد وجوده من كل صلاات الحياة وفسادها، فإنه يعمل دائماً ودائب صد قيمها الحيرة فيصير الخديعة على الوضوح.. وينصر الكذب على الصدق.. ولا يرى في الحرية إلا صفقة يُساوم بها وعليها . يؤمن ببعضها ويكفر بأكثرها يُسيحها هنا، ويُحرّمها هناك ..

ومن ثمّ لم يجد الصمير الإنساني بُدّاً من أن يجتد كل طاقات البشر ليلقى بها في معركة فاصلة ضدّ هذا الخصم

المُبين.

وهكذا واصلت ثورات الحرية انطلاقاتها متصرة ظافرة.  
حتى لم يعد في طريقها إلا أهونه وأقله .

\*\*\*

ويُشارف عصر العقل قمة مهمته ومساعاه بإرسال سُفرائه  
إلى الفضاء والمجهول .

إن كل التهويمات التي حاول الفكر من قديم أن يتعرف  
بها إلى الكون ويُجر بها توصيات الصمير الإنساني بإنشاء  
علاقات وطيدة وصدقات نافعة مع الكون . بكواكبه ونجومه..  
تلك التهويمات التي جاءت مع الحُسن القديم .. وتلك  
الإيماءات الذكية المباشرة التي جاءت مع الدين . هذه وتلك  
تحولت في عصر العقل على يد "أينشتاين" ورفاقه إلى نظريات  
وقوانين ثم إلى صواريخ تحمل إلى الفضاء بكل أسرارهِ، لاحتس  
الإنسان وظنونه ... بل علمه، وذكاءه، وقلراته، وبقيته..  
إن هذه الصواريخ عابرة الفضاء والكواكب، لتترك في كل  
مكان يمتازه أوراق اعتماد كسفير دائم لـ "أمة الأرض" وإرادة  
الإنسان..!!

\*\*\*



تُرى، هل يظل الذكاء الإنسانى بعد وثبته العاتية والمعجزة  
 هذه — على ولائه للصمير...؟ أم هو فى مُروقه المدهل من  
 الأرض إلى الكواكب، يهرق أيضاً من المسئوليات التى لا يفتأ  
 يُذكره الصمير بها ويدعوه إليها...؟

فى هذا المأزق وحده تتمثل اليوم مشكلة الإنسان .  
 ولقد كان الصمير صادق الحس بهذه المشكلة، فراح يلقاها  
 فى أول الطريق، وينشئ لها عصراً جديداً يحمل نداءه ويحمى  
 رَجاءه.





في عصر غاندى .. والذرة ..



سار العلم يقطع الطريق وثبا .

وجاء "جاليليو"، و"نيوتسن"، و"دارون"، و"فرويد"،  
و"هرشل"، و"بريستلي"، و"دايفي"، و"فرايداي"، و"مكسويل"،  
و"ماركوتي".

وجاء "دلتن"، و"مندليف"، و"كوري"، و"طمسن"  
و"موزلي".

وجاءوا جميعا وعشرات مثلهم، وسهضوا جميعا فوق  
أكتاف الدين سبقوهم في الحضارات القديمة، ثم في بلاد الإغريق  
العظيمة، ثم في الحضارة الإسلامية المدهرة..

وساروا على الدرب الطويل، يحملون المشاعل نفسـها..  
ولكن بقلوب أجرا، وخبرات أعظم، وذكاء أكثر مصاء، وعزيمة  
أشد تصميما وإصرارا.

وحديث "الذرة" الذي بدأ مع الفيلسوف اليوناني  
 "إيوسينس"، ثم نما واتسع مع "ديمقريطس" و"أبيقور"، ثم نظمته  
 "لوكريتيوس" الروماني في ستة دواوين من اشعرا ثم أخذ طابعا  
 علمياً وحديثاً على يد "دالسي" في أوائل القرن التاسع عشر،  
 ورفاقه الذين وفدوا بعده .

هذا الحديث عن الذرة، ظل يتقل في أصلاب العقول حتى  
 وفد على الحياة ذات يوم رجل عجيب اسمه "أينشتاين" فقال  
 الكلمة الأخيرة التي أطلقت العفوان الذري من مكنه.

في أي عام ولد "أينشتاين" ؟؟..

وهل بعيننا تاريخ مولده كثيراً ؟؟..

أجل .. إذن فلنعرف أنه ولد عام ١٨٧٩ -

ولد الرجل الذي سيكشف أعظم حقائق العلم اليوم .

وربما في كل يوم ١٠٠

ولد الذي ستبوح له "الذرة" بكلمة السر، فيفض آخر

مغاليقها .. ويمط بضعة رموز على ورقة بيضاء، فتتحول هذه

الرموز إلى طاقة تناهت في رهبتها وخطرها .. ولكن . انظروا .

فقبل أن يولد هذا الرجل بعشرة أعوام تماماً، أي في عام

- ١٨٦٩ - ولد رجل من طراز آخر اسمه "غاندي" ..

أَيَّةُ حِكْمَةٍ إلهية عَظُمَى ١٠.

وَأَيُّ اتِّعَاقٍ سَعِيدٍ هَذَا ١١..!

قَبْلِ أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلَ الَّذِي سَيُطْلَقُ الْمَارِدُ الرَّهيبُ .. جَاءَ

الرَّجُلَ الَّذِي سَيُضَعُ الْبِلْسَمُ الْعَجِيبُ ١١١١..!

قَبْلِ أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلَ الَّذِي أُطْلِقَ طَاقَةُ "الذَّرَّة" .. جَاءَ

الرَّجُلَ الَّذِي أُطْلِقَ طَاقَةُ "الْحَبَّة" ..

إِنِّكُمْ يَا أَهْلَ عَصْرِ الذَّرَّةِ أَمَامَ مَعْجَزَةِ أَعْظَمِ مِنَ الذَّرَّةِ

نَفْسِهَا..!

أَجَلَ فَقَدْ تَحَوَّلَتْ الْحَبَّةُ إِلَى طَاقَةٍ وَأَشْمُ لَا تَشْعُرُونَ..!

وَالَّذِينَ هَتَمُوا بِالْهَيْبَةِ وَالسَّلَامِ وَعَاشَوْهُمَا مِذَّآلَافِ السَّنِينَ

إِلَى يَوْمٍ .. بُعِثَ وَلَاؤُهُمُ السَّبِيلَ لِلْحُبِّ فِي مَهْرَجَانِ النَّصْرِ الْمَجِيدِ

الَّذِي هَيَّأَ هَذَا الْإِبْنَ الْمُبَارَكَ الْعَظِيمَ لِلْحَيَاةِ وَلِضَمِيرِهَا .. قَدْ نَسِيَ

عَصْرَنَا.. وَقَدْ نَسِيَ الْعَصُورَ قَاطِبَةً - غَانْدِي ... ١١..!

إِنْ عَالَمُنَا كَانَ يَنْتَظِرُهُ ..

وَأَنْ الصَّمِيرَ الْإِنْسَانِي كَانَ يَبْحَثُ عَنْ هَذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ

يَبْنِي مِنْ كُلِّ هُنَاتَاتِ الْهَيْبَةِ صَرْحًا مُوَحِّدًا، وَيَحْوِيَهَا إِلَى طَاقَةٍ تَبْأَتِي

مِنَ الْمَعْجَزَاتِ بِمَا يُقْعِعُ عَصْرًا عَسِيرَ الْإِيمَانِ .. وَلَقَدْ وَجَدَ طَلِبَتَهُ فِي

غَانْدِي ..

إن "غاندى" ، هو ضمير عصرنا.. وهو اسمثل الحق للضمير  
 الإنسانى فى أجيالنا وعالمنا الحديث كله ..!  
 وحين نضع "الدرة" فى الجهة المقابلة لـ "غاندى" لنعنى  
 بهذا أننا نضع الشر مقابل الخير.. فإطلاق الطاقة الذرية خير  
 عظيم رغم البداية البشعة التى استهل بها العلم عصر الذرة.  
 بيد أن لعلم بسيطرته على الطاقة النووية، وعزوه الفضاء،  
 قد هبأ لئس عصرنا المزيد من الغرور، والمريد من الافتتان بالمادة،  
 والمريد من التحمهم للإيمان، والمزيد من المبراة فى التسليح وصناعة  
 الدمار والعدم .

أى أن كل محاولات الفتك بالحياة، عبر التاريخ الإنسانى  
 كنه، قد بلغ مداها الطاغى قمته عندما أصبحت الدرة سلاحا فى  
 يد الإنسان .

فماذا كان جواب الضمير الإنسانى ؟.

كان أن اصطنع غاندى ليتحدى به الضعف لإنسانى فى  
 كل ألوانه، ليركز فيه خلاصة تجاربه ومنتهى فضائله وسمره،  
 ولتتمثل فيه عند الذروة أعرق وأعرق الحاجات الإنسانية من  
 إيمان ، ومحبة، وكرامة، ووعى، وسلام.

وجاء غاندى ..

وكان أمره عجبا ..

جاء الرجل الذى سيعلم كل الناس، ولدى تعلم من كل الناس - تعلم من "المسيح" و"محمد" .. ومن "سقراط" و"بوذا" ..  
وقرأ لـ "إمرسون"، و"ثورو"، و"كارليل"، و"رسكن"،  
و"تولستوى" حيث تأثر به كثيرا وحاكاه كثيرا .

وإننا إذ نتحدث عنه. لا نؤرخ له، وإنما نتتبع رحلة الضمير  
الإنسانى من خلال الحياة الجميدة لهذا القديس .

لقد بلغ الصمير الإنسانى قمة رشده، وهو ينحرك فوق  
مسرح الأحداث الكبرى لعصرنا متقمص شخصية ابنه البار  
المهائم غاندى ..

ولم يكن صدفة ولا اعتباطا أن تعصى البشرية في وقت  
واحد - غاندى، والذرة - بل هو تدبير محكم لقدر عليم  
إن "الذرة" تعنى أن عصرنا قد وضع في يده مكن أسرار  
الكون ومفاتيح المجهول ما لم تعضه البشرية السالفة كلها.. فإذا  
وضع هذه الأسرار في خيمة الطفر والناب، فسوف تتحول  
الأرض ومن عليها إلى ذكرى كئيبة.

وإذا وضعت في خدمة الضمير والعقل مستلعم الشرية من  
درى الكمال مالا عين رأت، ولا أدب سمعت، ولا خطر على

قلب بشر..

ككيف - إذن - يؤثر الثانية على الأولى..؟

كيف يصنع أسرار الدرة وطاقتها النامية اعطية في خدمة السلام والخير..؟

إن الضمير الإنسانى يجيبنا بكلمتين اثنتين... "تجربة غاندى". فتجربة غاندى لم تكن من أجل الهند وحدها.. وغاندى لم يكن رجل الهند وحدها.. ومهما يكن مصير الهند دولة وشعبا بعد رحيل غاندى عنها، فإن تجربة ادائها ستظل مبراسا للشورية كلها.. ستظل أرفع من أن تعطى دلالات قومية ضيقة، وستظل معاديمها وأنوارها عميقة شاملة..

ذلك لأنها ليست من صنع، ولا من وحى يمتصه وعصره.. بل هي بحرية الأنبياء والمرسلين، والرواد والمصلحين.. تجربة الإنسانية كلها. تجربة ضميرها القوى الشجاع منذ الأيام الأولى للبشر.. منذ الأزمان البعيدة الممعة في العبد.

ولكن، لأن المادة وحدها، صارت مصدر تفكير هذا العصر الذى نعيشه، فإن تجربة الروح التى مارسها غاندى بشجاع عظيم، برغت كما لو كانت نسيجا وحدها.

ولقد كان قدرا علويا، أن يجيء هذا الرجل بتجربته في



عصر يريد ألا يؤمن إلا بالمحسوس إنما لتكون .. وبالقبلة حلاً للنزاع .. وبلاستغلال سيلا لتملك، وبالدمار طريقاً إلى الحياة وبالكبرياء آية للقوة وبالغنى سيلاً للسيادة. !!

جاء هو، ليؤمن بالله الذي لا تدركه الأبصار، وليؤمن بالحق الذي يجب أن يكون فوق القوة.. ولينادي بـ"الساتيا جراها" أي "بد العنف" ويحل بها أعنى المشكلات والأزمات.. ولينبذ التملك، ويسير عرياً وحافياً ليشارك الملايين من شعبه شقاءها وضناها.. وليحمل معزله ويصطحب عنبرته، في الوقت الذي يقود فيه أكثر من ثلاثمائة مليون هندي في معركة من أنظف وأعظم معارك الحرية والاستقلال، وفي الوقت الذي يعامله سكان الكرة الأرضية كأستاذ، وينظرون إليه في تقديس كمعجزة. !!!

جاء ليحترم الحياة ويفدسها، ليس في الإنسان وحده.. بل في لكائنات الحية جميعاً.

ألا فلنصغ للضمير الإنساني يتحدث من خلاله .

● - "نقد وجدت الحياة تنحدر في هاوية الدمار بسبب

العنف

"وقلت نفسي: لا بد أن هناك بديلاً للعنف يقود الحياة

ويسمو بها على الدمار.

"وهذا الدليل قانون صادق يجعل الجماعة الإنسانية منسجمة،  
ويكرم مثوى الحياة .

"وإذا ما اهتدينا إلى هذا القانون، فواجبنا أن نعمل به من  
فورنا.

"ولقد عرفت "القانون" وحريته فنسج أعظم نجاح...  
"ذلكم هو المحبة..

"فحيثما توجد الحروب، وحيثما يجاهتنا الخصم؛ فالمحبة  
طريق الظفر..

"ولقد ظهرت آثار هذا القانون في الهدى على أوسع مدى..  
"ولست أرعم أن مبدأ "اللاعنف" قد نفذ إلى أفئدة الثلاثمائة  
مليون والستين مليوناً من الهنود ..

"غير أني أؤكد أنه سيطر على النفوس أكثر من أية عقيدة  
أخرى، وفي سرعة تذهل الحاسبين..

"لقد علمتنا التجربة أن كل مشكلة تجد حلها الصحيح  
حين نصمم على أن يجعل قانون الحق ريباً العنف دستوراً  
للحياة...!"

هكذا تحدث غاندى .

إن كل مشكلة تستجيب لحل الصحيح، مادام الفرق  
والحب والحق دستوراً للحياة .

ولكن حين لا يأتى هذا الدستور بنتيجة . حين تأبى قوى  
الشر أن تذعن للحق وتستحيى من الحب .. ألا يكون السلاح  
يومئذ هو العلاج المناسب ؟؟

إن غاندى يتسم لمثل هذا التساؤل وهذا المنطق ابتهامة  
راث ومشفق ..

فحمل السلاح عنده ليس حلاً على الإطلاق، والسلاح  
كوسيلة لحل المشكلات ليس أمراً مهلكاً فحسب، بل هو فشل  
أيضاً ومنهقق كل الإخفاق .

ها هو ذا يقول :

● - "لقد أعلن الرئيس ولسن شروطه لأربعة عشر الطيبة،  
ولكنه ختمها بقوله: إذا فشلت محاولتنا لإحراز السلام فلننتمد  
على أسلحتنا ..

أما أنا فأقول عكس هذا تماماً.. أقول. إن الأسلحة قد  
فشلت ونحسرت ونجابت ، فتعالوا يبحث عن وسيلة أخرى..  
تعالوا بحرب قوة الحب، وقوة الحق.. فإذا ظفروا بنتيجة ، فأنشد

نكون قد وجدنا الطريق" !!..

ولقد ذهب يجرب قوة الحب وقوة الحق ..

لم يجربها ليحدد على ضوء نتائج التجربة مدى ولائسه  
للحب وللحق، فولاؤه لهما وإيمانه بهما أرسخ وأعظم من أن  
يكونا موضع تجربة وامتحان .

إنما يجرى التجربة لحساب البشر .. ليرى من له عينان،  
ويسمع من له أذنان، ويعقه من له قلب، كيف يعالج الخير الشر،  
وتقهر المحبة الكراهية ..

فالسلاح عند غاندى وسيلة بائدة ومهلكة

وقد قال "فرنكيس د روزفست" يوم وهو رئيس للولايات  
المتحدة. - "إن الالتجاء إلى القوة في الحرب العظمى الأولى قصر  
عن جلب السلام، فالنصر والهزيمة كانا عقيمين، وكان من  
واجب العالم أن يتفهم هذا الدرس" !!..

وكل زعماء العالم الحديث قانو ما قانه روزفلت"، ولقد  
بحث أصواتهم جميعا هاتفة بضرورة نزع السلاح؛. بينما هم  
يتسارون جميعا في جنون التسليح وصناعة الانتحار..!!  
أما غاندى فتلك عظمتة ..

قال: لاخير - اليوم - في العنف وإنما لخير في هذه، ثم وضع

هذه الحقيقة موضع التطبيق الأمين والرفيق، وشهدت الحياة وهي سعيدة معتظة ابها النار هدا، أشيب الرأس، صامر البدن ..

إذا جس، ففوق تراب الأرض، وإذا نام فعلى أرض العرفة العارية، ولا يملك من دنياه سوى ثلاثة أثواب خشبة، ثوبان لللبسة، ويتخذ من الثالث فراشا.. ويعيش على البندق والبرتقال والتمر وليس الماعز، وكما يقدر صلاته وصيامه، يقدر بنفسه القدر جلوسه إلى معزله أربع ساعات كل يوم..!!

شهدته الحياة في عبطة، وهو يحوض مع شعبه الأعزل أعجب معارك الحرية ضد امبراطورية كبرى، انتهت إليها يومذاك سيادة الأرض والبحر والجو.

خاص المعركة بسلاحه هو.. "السانيا جراهام" - "نبذ العنف".

ولم يكن يرعجه الرصاص المبهمر فوق أبناء شعبه من القوات المستعمرة العاصية، بقدر ما كان يزعمه أن يرى هنديا يرمى عدوه وقائله بحصاة 11..

ذلك أن الآخرين يتصرفون وفق شرائع العاب التي يحملون رواستها .

أما أبناء غاندي وحمة مبادئه، فيجب أن يتصرفوا وفق

مبادئهم هم - هذه المبادئ التي اكتشفت قانون الحب والحق ونذرت حياتها له .

الآخرون، يتمون إلى عصور الكراهية والعنف. أما غاندى ومريدوه بنور بشرية جديدة، وبشائر عصور الحب والتسامح والرشد..

\*\*\*

حين صدرت قوانين "رونند" التي صادرت حرية القبول والنشر. إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى . ثم حرر أعفيتها مدحجة "أمر تسار" الرهينة، أصيب غاندى بحمية أمل مريرة، فسهر لى أحسن إلى بريطانيا فى الحرب، وبدل لإجراح قضيتها كل عون رآه مشروعاً وعادلاً.. والآن وقد عادت ساحة القتال منتصرة، فإنها تجازيه أسوأ جزاء .

عندئذ، وأمام هذا الموقف الذى يحتم القمام، مناهضة ومقاومة، أخرج غاندى من حقيقته أقصى وأقصى إجراء تسمح له مبادئه باتخاذها، وكان "العصيان المدنى" الذى يتمثل فى عدم التعاون مع المستعمرين.. شريطة ألا يقوم هذا العصيان السلمى بأية بادرة من بؤادر تعسف وحمل السلاح.. لكن بحرية غاندى المتمثلة فى الحب ونيد العنف.. لم تكن قد عاشت بين شعبه

يومذاك إلا قليلا، فلم يكذ الشعب يبدأ حملة "العصيان" حتى استجاشته الأحداث، فتحول العصيان السلمى إلى عصيان مسلح

وعندئذ لم تشهد حياة غاندى أياما ملآى بالمرارة والحزن كتلك الأيام التى رأى فيها مبادئه تتعرض لهذه الخيانة من أمته وشعبه، فأصدر بداءه الحثيث بإرجاء حملة العصيان المدنى، وثار كثيرون من الشعب ضده ووقع ضحية لعدوان فريق من الفوغاء أكثر من مرة - وكان هذا أقصى كثيرا على نفسه من أى عدوان يصيبه من الإنجليز أنفسهم.. ومع هذا فما ازداد إلا إيمانا بمبدأ "بذ العنف" وأطلق يومذاك حكمته الوثقى:

● - "إننى أؤثر الانتظار أجيالا وأحقابا، على أن ألتمس حرية بلادى بالعنف والدم".

مبدأ عجيب حقا.. ليس فينا من يطيقه، ولكن غاندى لم يأت ليسير في الدروب المظروقة.. بل جاء ليرتاد من معاهل التفوق الإنسانى ما يحتم عليه الضمير ارتياده..

جاء ليعلم البشر أن الهبة تستطيع أن تغلب وتفوز، لا بالنسبة له وحده.. بل للجميع الناس أيضا .

من أجل ذلك، وحين قيل له: "إنك إنسان غير عادى..

ولا ينبغي أن تتوقع من العالم أن يعمل مثلما تعمل' - أجاب قائلا:

● - "إني إنسان ضعيف وفن مثل بقية الناس.. واني لأملك شيئا حارقا..

"وسأنتكم بكن ما أملكه..

"إني أملك من التواضع ما يكفي للإقرار بخطئي والرجوع عنه..

وأملك ثقة مطلقة بالله وبجوده.

وأملك ولاء للحق وللحب لا ينضب معينه.

"والآن دعوني أسألكم: أليس كل إنسان قادرا على أن يمتلك هذه الأشياء..؟؟

'إننا نكتشف كل يوم جديدا في عالم الطبيعة، والحياة فلماذا ستسلم لليأس والعجز، ولا نكتشف الجديد في روح الإنسان وإرادته..؟؟

"وهو الاستجابة لقانون الحق والحب نادرة.. فهل فُتت استحالة في مصاعفة هذه النادرة حتى تصح قاعدة' . ١١؟؟

\*\*\*

ما أعذب المنطق ، وما أصدق.



منطق رجل واع لجوهر الحق، وجوهر الحسب، ومدرك  
للمرحلة الجديدة التي لا بد للبشرية أن تنتقل إليها حين يصير الحق  
والحب دستورهما.

وهو إذ يخوض مع الاستعمار البريطاني في بلده على  
أساس دستوره هذا . فإنه لا يعمل لكي تظفر الهند باستقلالها  
فحسب، بل ولكي تنجح التجربة بخاها الذي يجعل منها طريقا  
عاما، للأجيال والشعوب..  
هــهـو ذا يتحدث:

● - "إن اهتمامي بحرية الهند سيزول لو رأيتها تصطبغ  
لبنوع حريتها وسائل العنف؛ لأن الثمرة التي نجنيها من تلك  
الوسائل لن تكون الحرية، بل الاستعباد"

\*\*\*

ويقول:

- "إن لا أكافح من أجل غاية أدنى من سلام العالم كله..  
"فإذا انتصرت في الهند حركة "بند العنف" فإنها سوف  
تعطي معنى جديدا للبطولة، وللحياة ذاتها، واسمحوا لي أن أقول  
هذا بكل تواضع".

هذا ما يريد به الضمير الإنساني إذن من غاندي.

أن ينزع عن البطولة مفاهيمها الرائفة المتمثلة في العلب  
بقوة السلاح والى والشر.

وأن يرد إليها معها الحق.. فالبطولة هى السهم على  
الحقد، والتعوق على العيب والشر والباطل، والمحنة والخير والحق.

\*\*\*

ولم كانت الوصية الساجدة بالتعصب اندمى لمصها، عمل  
يحمل طابع المقاومة للحق والحب، ومقاومة لكل محاولات  
التأخى المحترم بين جميع البشر، فإن الضمير فى تجربة عاندى  
يرسم من أقوال الرجل ومن سلوكه ما يجر هذا النوع من  
الوطية الضيفة المغلفة.

● - "إنى أدعو نفسى وطيبا، بكى وطيبى واسعة كالكون  
الرحيب . إنها تصم فى فؤادها سائر أمم الأرض، وتعمل  
وطيبى من أجل كرامة العالم كله ورفهينه .

"إنى إذا كنت أنشد فى الهند أمة قوية، عيسى لكى تستعمل  
أو تشامخ، بل لتكون للدول الأخرى قدرة ومثلا"

\*\*\*

ولما كان دين الأمة وثقافتها أهم الخصائص التى تحدد  
شخصيتها، فقد أراد عاندى ألا يتجنى انعكاسات الدين والثقافة

على أمتة مراهضة لتبعاتها الجديدة تجاه الإخاء العالمي والمحبة الشاملة، من أجل هذا قال :

"إن الديانة الهندية ليست ديانة معلقة ، بل إنها لتتسع لعبادات جميع الأشياء ..

"وهي تنصح كل إنسان أن يعبد الله وفق دينه وعقيدته"  
وقد عن الثقافة :

"إن الثقافة الهندية ليست هندوسية ولا إسلامية، ولا غير هذين .. إنما هي مزيج من الثقافات جميعا"

\*\*\*

● "أريد أن تهب رياح الثقافات من جميع البلدان وتصدق حول بيتي في حرية .. ولكنني أرفض أن تفتلني من مكان ثقافة منها؛ ذلك لأنني أرفض أن أعيش تابعا أو عبدا" ..

\*\*\*

إن الوحدة البشرية تستكمل خصائصها في رعي ذلك القديس والرعيم .

وهذه الوحدة وإن كانت تصنع مصيرها بيديها وإرادتها إلا أنها لاتبلغ من الغرور ما يجعلها تكفر بوجود إله عادل وعظيم.

- - "إني مثل أي هدى آخر، أو من بالله، وبالتوحيد".  
والأديان - هذه أقوى الهادية الصامدة التي أعطت الإنسانية  
من الرشد والسمو ما أعطت، لا تحركها في تجربة غساندى إرادة  
التنافس - بل إرادة التكامل .
- - "إنني أؤمن أن التوراة ، والإنجيل، والقرآن والزندافستا  
- أي كتاب زرادشت - كلها ملهمة كالفيدات محما .."

\* \* \*

ولقد عاش غاندى القديس والعايد وفق هذا المبدأ.  
وحين إغتالته رصاصات آلمة، كان لسانه لا يزال رطبا  
بصلاته التي كان يتلو بين تراتيلها - ﴿قل هو الله أحد، الله  
الصمد، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد﴾ ..  
أجل .. كان يضمن صلواته دوما آيات من التوراة. ومضى  
الإنجيل، ومن القرآن، ومن كتب الديانة الهندية (الفيدات) ..  
ألا وإن غاندى الذى تلقى من عصر النبوة احترام الدين،  
قد تلقى من عصر العقل احترام الاقتناع، فكان يناقش الأديان في  
غير تطرف أو مفسطة، ولم يكن الإيمان بالله ، ولم تكن عبادته  
يعنياد عنده الحياة في صومعة، أو حتى نشدان الخلاص  
الشخصى .. بل كانا يعيان تحرر الروح الإنسانى والمصير

الإنسان من كل معوقاتهم، وبعث الفرد المتفوق على أهوائه  
والعامل في خدمة الجنس البشرى على أساس من الحق والحب..

\*\*\*

إن بهاء التجربة الإنسانية في "غاندى" وعظمتها،  
يتمثلان في أنه لم يكن مجرد قديس، ولا مجرد زعيم روحى بل  
كان زعيما سياسيا يتعامل مع دول، وحكومات، ووزارات  
خارجية تعج بالحيل الشيطانية، وكان وضعه هذا يدعو كـ  
يدعو سواه إلى اصطلاح الوسائل الدبلوماسية التى كثيرا ما تعتمد  
على الكذب والمخاتلة، ومع هذا فقد نجح بحاجا عظيما فى أن  
يستمسك بوسائله هو . وبلغ بها وحدها كل ما أراد لأمته  
من وحدة واستقلال، وكل ما أراد للبشر من قدوة . لكأما أراد  
الضمير الإنسانى أن يقول لعصرنا من خلال تجربة غاندى هذه:  
إن هذا الطراز من الزعامة السياسية هو الذى يجب أن يكون..  
هو الذى جاء دوره وأملت أيامه !!..

إنها الزعامة التى لا تربط نضالها بالغايات العظيمة  
محسب، بل وبالوسائل العظيمة والظيفة، أولا، وقلا..

إن - راجندرا برازاد - رئيس جمهورية الهند السابق يروى

لنا هذه الواقعة فى كتابه: "عهد قلمي غاندى"

● - "دأت يوم قدم إبننا أحد موظفى لحكومة بصفة سرية نسخة من تقرير كان قد قدم إلى المسئولين البريطانيين فى الهند، فحملنا التقرير إلى - غاندى - بيد انه عرف قبل أن يقرأه الطريقة التى حصلنا بها عليه.. فما كسان منه إلا أن أبى الإطلاع عليه ورغب فى إعادته إلى الموظف الحكومى.. تلك كانت الطريقة التى عملنا بها الصدق فى العمل!!.."

\*\*\*

إن غاندى يعلم البشرية باسم الضمير الإنسانى أن الوسائل أهم من الغايات.. فنحن نعيش مع الوسائل أكثر أكثر مما نعيش مع الغايات.. إن الغايات قد تتحقق آخر العمر.. وقد نرحل عن الدنيا فور تحققها.. أما الوسائل فنحن نقضى عمرنا كله أو أكثره معها، ومن ثم فهى التى نصلنا، ونصوغنا، ونهى فىنا إرادة الخير إذا كانت قويمه، أو إرادة الشر إذ كانت رديئة. أجل.. إن حياتنا فى مجموعها ليست إلا تلك الوسائل التى تتوصل بها لتحقيق أهدافنا .

وهذا هو الذى منح حياة غاندى، وبالتالى منح تجربته تكاملا فذا وباهرا .

لقد كان غاندى رياضته الروحية الخاصة السقى لا يكلف

بها إلا من يطيقها ويختارها، والتي لا ينبغي أن تتخذ مسررا  
لوصف تجربته بالمثالية المعرطة.

فأملوب غاندى في التفشف، وفي الصيام، والصمت، وفي  
قصر طعامه على أنواع محدده كالبنديق والتمر ولين الماعز  
وامتناعه عن أكل اللحوم احتراماً لحق الحيوان في الحياة..

كل هذه ليست من التبعات الأساسية التي تتطلبها "تجربة  
غاندى" لخلق عالم يقوم على الحق والحب .

إن جوهر هذه التجربة تتمثل في قدرتها على ملء الفراغ  
الوهمي لقائم في الحياة الإنسانية، كيما تجدد تكاملها

\*\*\*

ومن ثم فإن بطل عصرنا وأستاده قد وضع أقدم البشرية  
والحياة فوق الطريق المستقيم .

إنه لم يؤمن بفراغ بين السماء والأرض، فأمن بالله الذي  
يملا الكون بأسره ..

لم يؤمن بفراغ بين الأديان؛ فعبد الله بها جميعا .  
لم يؤمن بفراغ بين الناس فقوم آفة الطبقية، وعاش بين  
المسيوذين ..

لم يؤمن بفراغ بين شعوب الأرض، فنذر حياته لسلامها

جميعاء، وحرثها جميعا ..

لم يؤمن بفراغ بين الوسائل والغايات، فمارسها جميعا على  
نمط واحد من الاستقامة ورفعة الضمير ..

لم يؤمن بفراغ بين الزعامة والأمة، فتخلى عن أرباحه  
الحلال الهائلة، وشارك الملايين تقشفها ومعاناتها، ورفض دوما  
أن يفرض آراءه، أو يفرد من دون الناس بقرار ..

لم يؤمن بفراغ بين القانون والحكومة فقدس العدل  
والحرية ..

لم يؤمن بفراغ بين الروح والجسد فمزجهما معا في  
شخصه المهيب وصاغ منهما أعذب تسيحة في عام الظهر  
الإنسانى والكمال البشرى ..

\*\*\*

تلك هى تجربة الضمير الإنسانى التى تنتظم كل محاولاته  
السخيرة ..

لقد كانت الهند "بيت" غاندى ..

وكان العالم "وطنه" ..

فماذا كانت رسالته نحو الهند وماذا كانت رسالته نحو

العالم .. ؟



أما رسالته نحو الهند ، فكانت أن يوحدها، ويحررها..  
ولقد أتم ذلك نجاح !!

وأما رسالته نحو العالم، فإن يعطيه المثل الصحيح في قدرة  
الحق والحب على حفظ الحياة وتحقيق السعادة !!..

لا ينبغي أن يقال هنا: لكن غاندي بشير الحق والحب قد  
ذهب صريع الكراهية والعدو.. والطريقة التي انتهت بها حياة  
غاندي لم يكن منها بد لكي يبلغ الدرس العظيم تمامه. فلماذا  
القدر يقول لنا، والضمير الإنساني يصيح فينا : نظفوا، إن  
المحب الودود الذي لم يؤذ طوال حياته بعوضة . إن خير وأعظم  
رجال عصركم بأسره، لم يسح من أذى الكراهية التي تحملونها  
في قلوبكم، واسلح الذي تحمونه بأيديكم، فهل بقي ريب  
فيما يدخره العنف لكم من سوء المصير..!!؟

\*\*\*

إذا بقي في العالم دولة واحدة تحمل أسلحة القتل فسيكون  
ذلك ميرا أكيدا لكي تحمل كل الدول سلاحها، فالعنف ينادي  
العنف ومن هنا تعلق "تجربة غاندي" أن المصير الإنساني لم  
يتطلب وحدة العمل الإنساني في شيء كما يتطلبها اليوم في  
نبذ العنف.. ونزع السلاح وإلغاء الحرب ..

ولا أريد أن أقول إن على العالم أن يختار بين طريقين.. إذ ليس أمام العالم سوى طريق واحد هو الطريق الذى اختاره غاندى.. لحق واحب.. حيث تحتفى الحرب، والسلاح، والكراهية، والباطل..

وهى الطريق التى سارت عليها تجربة الضمير الإنسانى ورحلته منذ بدأ سيره من آلاف السنين.. وهو غرض الحياة الذى يبدو من إصرار الضمير على إدراكه، أن الله سبحانه قد خلق البشرية لتحقيقه..

لقد كنا حين نصغى لهذه الدعوة، وهى تأتىنا من نبي، أو مصلح قديم، نقول : تلك مثاليات أزمان بعيدة، لم يكن فيها ذرة ولا صواريخ !!..

أما اليوم، فقد أثبتت تجربة الضمير مع غاندى، أن هذا النهج لم يكن صحيحا، ولا ضرورة، ولا ممكنا فى عصر من العصور، مثلما هو صحيح، وضرورى، وممكن، فى عصرنا هذا. وإن تجربة "الحق والحب" هذه. فى عصر "غاندى والذرة" لتعتبر فى تاريخ البشرية كله نهاية مسير، وبداية مصير..

وإن عصرنا لهو الطليعة ..

فهل سيجزى حمل الرسالة ..

كلا، ولو هذا دلت مستحيلا ..  
 فإنه لامستحيل على القلب الشجاع .  
 وإن عصرا يحمل تجربة غاندى فى يمناه.. ويحمل أسرار  
 الذرة فى يسراه.. لهو عصر ، شجاع قلبه . وثيق عزمه.. مبشرة  
 أيامه ... !!



## المراجع

### الفصل الأول

١. ما قبل الفلسفة

تأليف: هـ. أ. فرانكفورت وهـ. فرانكفورت وجون أ. ولسن  
وتوركليد جاكيسون. ترجمة: جيرا إبراهيم جبر

٢. فجر الضمير

تأليف: برستد ترجمة: سليم حسن

٣. قصة الحضارة - جزء ٢، ٣، ٤

تأليف: ول ديورانت: ترجمة: د. ركي نجيب محمود ومحمد بدران

٤. الأدب المصري القديم

تأليف: سليم حسن

٥. سقراط، الرجل الذي حرّو على السرا

تأليف: كوراميسن ترجمة: محمود محمود

٦. إنه الإنسان

تأليف: خالد محمد خالد

### الفصل الثاني

٧. القرآن الكريم

٨. الكتاب المقدس: سفر التكوين — إنجيل متى  
٩. تحديد التفكير الديني في الإسلام  
تأليف: محمد إقبال      ترجمة: عباس محمود  
١٠. معالم تاريخ إنسانية — جزء ٣  
تأليف: ولز      ترجمة: عبد العزيز جازيد  
١١. معا على الطريق، محمد والمسيح.  
تأليف: خالد محمد خالد.

### الفصل الثالث

١٢. العلوم عند العرب.  
تأليف: قدرى حافظ طوقان  
١٣. إنسانية الإنسان  
تأليف: رالف بارثون برى      ترجمة: سلمى الخصراء الجيوشي  
١٤. أربعة أيام من يوليو.  
تأليف: كوريل ليجيل      ترجمة: أحمد عبد الرحمن حموده  
١٥. تاريخ إعلان حقوق الإنسان.  
تأليف: ألبير باييه      ترجمة: محمد منصور  
١٦. كوخ العم توم.  
تأليف: هريست يتشر ستاو      ترجمة: منير البعلبكي

## الفصل الرابع

١٧. أساطين العلم الحديث.

تأليف: فؤاد صروف

١٨. فلسفة الهند — سيرة يوجي.

تأليف: برمهنا يوجانندا      ترجمة: زكي عوض

١٩. عند قدمي غاندي.

تأليف: راجندرا برازاد      ترجمة: منير الحلبي

٢٠. اكتشاف الهند.

تأليف: نهرو      ترجمة: دار العلم للملايين

## كتب المؤلف

- ١- من هنا تبدأ
- ٢- الديمقراطية، أبدا
- ٣- هذا.. أو الطوفان
- ٤- الدين للشعب
- ٥- لله والحرية. (ثلاثة أجزاء)
- ٦- لكي لا تبحرثوا في البحر
- ٧- إنه الإنسان
- ٨- معا على الطريق محمد والمسيح
- ٩- نحن البشر
- ١٠- أفكار في القمة
- ١١- الوصايا العشر
- ١٢- إنسانيات محمد
- ١٣- في البدء كان الكلمة
- ١٤- بين يدي عمر
- ١٥- وجاء أبو بكر
- ١٦- كما تحدث القرآن
- ١٧- مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره
- ١٨- أزمة الحرية في عالمنا
- ١٩- كما تحدث الرسول (مجلد)
- ٢٠- رجال حول الرسول (مجلد)
- ٢١- في رحاب علي
- ٢٢- وداعا عثمان
- ٢٣- أبناء الرسول في كربلاء
- ٢٤- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
- ٢٥- عشرة أيام في حياة الرسول
- ٢٦- خلفاء الرسول (مجلد)
- ٢٧- .. والموعد الله
- ٢٨- دفاع عن الديمقراطية
- ٢٩- الدولة في الإسلام
- ٣٠- لو شهدت حوارهم لقلت
- ٣١- قصتي مع الحياة
- ٣٢- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
- ٣٣- الإسلام ينادي البشر
- ٣٤- قصتي مع التصوف
- ٣٥- معصيره

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة

رقم الإيداع ١٣٧٥٦ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-5732-37-9



# سَعَى الضمير الإنساني

## في مسيره ومصيره

إن هذا الكتاب يمثل رؤية تاريخية لموكب "الضمير الإنساني" في رحلته، منذ بدأ فسيره حتى يومنا هذا . رؤية تسعى إلى استجلاء الخصائص التي يقود الضمير بها قافلة الإنسان صوب كمالها المقدور، كما تحاول استشراف المستقبل الواعد لبنى الإنسان من خلال التجربة الحية للضمير.

ولئن كان ثمة ما تعارف الناس على تسميته بـ "الضمير الدولي" أو "الضمير العلمى" أو "الضمير الدينى" أو "الضمير الاجتماعى" - فإننا نعتنى بـ "الضمير الإنسانى" ما هو أعم من هذا كله، وأكثر شمولاً .

مناذير محمد

